وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

نيل أويلينشبيغل

مسرحية

تأليف: غريغوري غورين
ترجمة: توفيق المؤذن

من المسرح ١٠

تيل أويلينشبيغل



تيل أويلينشبيغل

مسرحية

تأليف : غريغوري غورين
ترجمة: توفيق المؤذِّن

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

العنوان الأصلي للكتاب:

Григорий НИРОГ

Т И А Ь

صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠٠٧م
منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
سلسلة (من المسرح؛ ١٠)

تيل أويلينشبيغل: مسرحية / تأليف غريغوري غـــورين؛ ترجمة توفيق المؤذن؛ المراجعة وترجمة الأغاني شعراً نوفـــل نيوف . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م . - ١٩٢ ص؛ ٢٠ سم.

(من المسرح؛ ١٠) الطبعة الثانية

١ - ٨٩١,٧٢ غ و ر ت ٢ - العنوان ٣ - غورين
٤ - المؤذن ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

الكاتب والمسرحية في سطور

ولد غريغوري غورين في عام ١٩٤٠ وبدأ حياته العملية طبيباً في قسم الإسعاف بأحد مستشفيات موسكو، أما نشاطه الأدبي فمارسه هاوياً منذ عام ١٩٦٠ عن طريق كتابة اللوحات الساخرة الناقدة لنجوم المنوعات في الإذاعة

والتلفزيون والمسرح. في عام ١٩٦٨ انتقل إلى تأليف المسرحيات وسيناريوهات الأفلام. خط قلمه أكثر من عشر مسرحيات ترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبية، بما فيها العربية وعرضت ولا تزال في كثير من مدن روسيا والعالم.

حاز غريغوري غورين في عام ١٩٦٧ على لقب الاستحقاق الفني لروسيا الاتحادية، وهو عضو اتحاد الكتاب، واتحاد السينمائيين، واتحاد المسرحيين. في عام ١٩٩٥ حصل على جائزة «توراندوت الكريستالية» لقاء أفضل مسرحية في العام المنكور، وعلى جائزة «أستاب الذهبي» عن انجازاته في فن الكوميديا الساخرة.

أشهر أعماله المسرحية «أنسوا هيروسترات» (١٩٧٠) التي قدمتها مسارح الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وفنلندا وسورية.

« تيل أويلنشبيغل » (١٩٧٤) قدمتها مسارح الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا وهولندا والنمسا وغيرها.

«البيت الذي بناه سويفت» (١٩٨٠) قدمتها مسارح الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها.

دخل غريغوري غورين الساحة المسرحية في وقت كان يعاني المسرح السوفييتي من الفقر إلى الكوميديا الجادة ذات البعد الإنساني الشامل الذي يتجاوز الحدود الضيقة للأيديولوجيا المحلية، الصفة التي ميزت طويلاً ما كان يعرض على خشبات المسارح السوفييتية وخاصة في سبعينيات القرن العشرين –فترة الركود، كما أطلق عليها بعد ذلك.

لهذا السبب تلقفت مسارح المدن الكبرى - موسكو ولينتغراد - ثمار إبداعه الأولى التي كانت بمثابة الأوكسجين الذي أعاد الحياة للمسرح الروسي العريق، حتى إن بعض المسرحيات، ومنها « تيل أويلينشبيغل » دخلت حيز الإخراج وهي بعد مجرد فكرة درامية ثم كتبت لوحة بعد أخرى أثناء العملية المسرحية بالتعاون مع مخرج العرض والممثلين.

قال المخرج الروسي الكبير مارك زاخاروف الذي أخرج أول عرض لمسرحية«تيل أويلينشبيغل» عام ١٩٧٤ في مسرح بموسكو: «لقد أحدث تيل ثغرة في ريبة

المتفرجين وأعاد العلاقة بين العصور وفتح الطريق أمام أبطال مسرحيين آخرين».

حظي هذا العرض بنجاح هائل واستمر لقاء تيل بالمتفرجين سنوات عديدة من خلال ما يزيد على خمسمائة عرض مسرحي. توفّي غريغوري غورين عام ٢٠٠٠.

* * *

شخصيات المسرحية

١ - **كلاس**: فحَّام

٢ - **سوتكين**: زوجته

٣ - **تيل أويلنشبيغل**: ابنهما

٤ - **نيللي**: خطيبته

الشقراء بيتكين

السمراء آنا

٥ - **كاتالينا**: والدة نيللي

٦ - **إيوست**: سمَّاك

٧ - لامي غودساك

٨ - **كاليكين**: زوجته

٩ - عمدة المدينة

١٠ - رئيس محاكم التفتيش

١١ - الجلاد

١٢ - الراهب كورنيليوس

١٣ - الملك فيليب

١٤ - الأمير

١٥ - قائد الغوزيين

١٦ - ريزنكرافت

١٧ - الجنرال دون لوميز

١٨ - العجوزة ستيفن

١٩ - صاحب الخمارة

٢٠ - شريك السمَّاك

٢١ - غوزيون، جنود، فتيان، مواطنون، مواطنات، أرواح.

مكان الأحداث: فلاندريا، القرن السادس عشر

m

في منزل الفحَّام كلاس. كلاس والسمَّاك يشربان البيرة ويلعبان بما يشبه النرد.

تجلس في منتصف المنصة سوتكين الحامل وبالقرب منها كاتالينا تقطع الملفوف.

السمَّاك: (يلقي الزهر) دوساية...

كلاس : أنفك كوساية!(يلقي الزهر) شيش بيش!

السمَّاك: أبو كريش...

كاتالينا: (بتأمل) أنا أحب الحيوانات... البقر والكلاب والطيور... أحبها من كل قلبي الضعيف. أفضل أن يصيبني الأذى على أن يمس تلك المخلوقات شيء...

السمَّاك: (يلقي الزهر) دوساية!

كلاس : أنفك كوساية!

السمَّاك : سبق وقلتها...

كلاس : وأنت بلعتها...

سوتكين: (تتأوه) آخ...

السمَّاك : (يلتفت إلى الحامل) هل حان وقت الولادة؟

كاتالينا : لا. ابننا لا يزال نائماً. لا يزال الوقت مبكراً على خروجه إلى درب الحياة.

كلاس : متى يستجمع هذا المشاكس أمره؟ إلى متى سيستمر في المماطلة! أقسم إن لم يخرج اليوم إلى النور فسأدخل إلى هناك وأخرجه بنفسي.

السمضاك : لا تستعجل. اليوم أو غداً، ما الفارق؟

كلاس : يجب أن يخرج اليوم. هذا اليوم بالذات من شهر مايو لعام ١٥٢٦ يلائمني تماماً. أنا بحاجة لابن، وفلاندريا بحاجة لبطل. اليونانيون عندهم هرقل، والبريطانيون عندهم روبن هود، والإسبانيون عندهم دون كيشوت... أما نحن الفلامانكيين فلم

نستطع طيلة هذه الآلاف من الليالي ولادة بطل واحد. شيء مخجل.

السمَّاك: نعم، معك حق... لكن، لماذا قررت أنك أنت والد البطل المقبل؟

كلاس : حان الوقت... كما أن كاتالينا شاهدت ذلك في الرؤيا.

كاتالينا: في البداية كانت الأشباح تحصد البشر... وكان الجلاد يرقص فوق جثثهم. بقيت الصخرة تسعة أشهر وهي تقطر دماً حتى تفتتت. بعد ذلك شاهدت ولادة طفلين، الأول ولد في إسبانيا ويدعى الأمير فيليب، والثاني في فلاندريا وهو ابن كلاس، ولقبه أولين شبيغل، سيصبح فيليب جلاداً. أما أولين شبيغل فسيشب ماجنا من أصحاب المقالب. سيلفُّ الدنيا وهو يمجِّد الخير والجمال ويضحك من الغباء والحماقة حتى ينقلب على ظهره... سيلفُّ الدنيا كلها، ولن يموت أبداً لأنه روح فلاندريا.

كلاس : هل سمعت؟ سوف أسمِّيه تيل. تيلبرت، أي الحيّ الحرِك. اليوم ستبدأ مغامرته الرائعة، لو شدَّت الأم سوتكين من عزيمتها طبعاً.

(يدخل الجلاّد وهو يحمل إعلاناً)

الجلاد : أمر الإمبراطور. هل ستستمعون إليه؟

كلاس : (بلا مبالاة) تفضَّل. (يقدم له كأساً من البيرة).

الجلاد : شكراً، لقد بُحَّ صوتي... والآن اسمعوا: «من الآن فصاعداً يحظر عليكم، جمعاً وأفراداً، طباعة وقراءة وتوزيع واقتناء كتب ودراسات كلّ من مارتن لوثر، ويوهان فيكليخ، ويان غوس، ومارسيل بادواني، وإيكو لومبادي»...

كلاس : إيكو لومبادي ممنوع أيضاً؟

الجلاد : نعم، إيكو لومبادي أيضاً... وكذلك «فرانسيسكو لامبرت وإيوست يوناس، ويون بوبيريس...»

كلاس : ويون بوبيريس أيضاً؟.. لا ! كيف يعقل أن نقرأ يون بوبيريس؟ إنني بدون بوبيريس كإنسان دون

ذراعين! لا بد أنك أخطأت فيما يخص بوبيريس يا عزيزي!...

الجلاد : لم أخطئ في شيء. خذ واقرأ بنفسك.

كلاس : ماذا أقرأ؟ أنا شخص أمي...

الجلاد : إن كنت لا تقرأ ولا تكتب فما حاجتك لبوبيريس؟!

كلاس : اسمه يعجبني...

الجلاد : كفى حماقة. اسمعوا بقية الأمر... زبدة الموضوع: «...كُلٌّ من ينزلق إلى الهرطقة أو ما شابه، يحكم عليه بالحرق، ويحتفظ القاضي بحقٍّ تحديد طريقة حرقه على نار هادئة أو حامية. فيما يخص بقية الجرائم والمجرمين يحكم على النبلاء منهم بقطع الرأس، وعلى الفلاحين بالشنق، أما النساء فبالوأد وهُنَّ على قيد الحياة. ويخصص صاحب الجلالة المعظم لمن يشي بأمثال هؤلاء المجرمين ثلث ممتلكات المحكوم عليه بالإعدام...»

السمَّاك : لحظة، لحظة! هذه فقرة هامة... ماذا هناك بخصوص الأموال؟

الجلاد : يحصل الواشي على ثلث ممتلكات الـــ...

السمَّاك: شيء جميل. (ينهض ويتجول في البيت متفحصاً ما حوله) لكن كيف يمكن قسمة الطاولة... أو البغل مثلاً؟

كلاس : إيوست، ما بك! هل قرَّرت أن تصبح واشياً؟

السمَّاك: ماذا تعني بـــ قرَّرت؟ مثل هذه الأمور لا تقرَّر مسبقاً، بل تأتي من تلقاء نفسها... بالإلهام!

كلاس : أنت حقير أيها السماك...

السمَّاك: لست أنا الحقير. بل إنه الزمن الذي نعيشه يا كلاس. لو أني ولدت في عصر النهضة مثلاً لكان من الممكن أن أؤلف الألحان الموسيقية، أو لكنت رساماً أرسم صور العذراء والسيد المسيح... لكننا نعيش في زمن محاكم التفتيش حيث الإعدام حرقاً أو بحدّ السيف... فكيف للإنسان أن يعيش في مثل هذه الظروف؟ إنه عصر حقير...

سوتكين: (تمسك بطنها فجأة وتصرخ) آخ.. آخ..

(الجميع يقفزون من أماكنهم).

كلاس : (بفرح) لقد بدأت! حانت الساعة! إنك تكذب أيها السماك. لا يمكن للعصر أن يكون حقيراً. العلِّة في الناس. أما عصرنا فهو عصر الفرح. حان وقت ولادة تيل. (يطِّوق بطن زوجته) هيَّا يا بُنَيّ، شقّ الطريق بجبهتك.. أعيانا الصبر ونحن بانتظارك... هيّا، أشعلوا المشاعل، ولتعزف الموسيقى. استقبليه يا فلاندريا... ما هذه إلا البداية فقط!..

(إضاءة كاملة، موسيقى، أغنية)

أغنية البطل

هذي عــصورُ الظــلامْ	**والــشعب فيهــا مُــلامْ**
تدوسنا جميعنا كــالريشْ	**محــــــاكمُ التفتـــــيشْ**

لا بـــدَّ أن يـــزول هـــذا العهـــدُ

علـــى يــدِ الأبطـــال - هــذا وعــدُ

بلادنـــــا حبلــــى بهـــذا البطـــلِ

وكلُّنـــــا نحيـــا بهـــذا الأمـــلِ

وطالمـــا يحــيط بـــالجلاّدِ الاحتـــرامْ

فلنختـــــرِ الـــــسكوتَ لا الكـــلامْ

مـــن كـــان مـــن طباعـــهِ الغــضبْ

يُلْقَـــى بـــه للنـــار كالحطـــبْ

لــــدى الأميــــرِ كلبـــةٌ أمينـــهْ

حقيـــــرةٌ واشـــــيةٌ مــــشينةْ

لكـــنْ، ورغـــمَ وســـخِ البـــراثنْ

غاليـــةٌ فـــي القـــصر، بـــل ثمينـــهْ

لابـــدَّ أنْ يـــزولَ هـــذا العهـــدُ

علـــى يـــد الأبطـــالِ، هـــذا وعـــدُ

بلادُنـــــا حبلــــى بهـــذا البطـــلِ

وكلُّنـــــا نحيـــا بهـــذا الأمـــلِ

الفصل الأول

كاتالينا

(مدينة دامه. ساحة البازار الكبير أمام مبنى المحكمة. الراهب كورنيليوس يبيع صكوك الغفران).

الراهب : (بصوتٍ حزين) اشتروا صكوك الغفران. كفِّروا، أيها المسيحيون عن ذنوبكم بشراء صكوك الغفران. تجارة مقدسة. ببضعة فلورينات فقط تضمنون الجنة. (تسمع فجأة صرخة نائية مفزعة من مبنى المحكمة: «آه، لا أحتمل النار! أعطوني سُمَّاً! آه!.. يُصلِّبُ الراهب فزعاً. يخفت الصراخ ويخرج من مبنى المحكمة كلٌّ من الجلاد والقاضي والسمَّاك).

العُمدة : (للجلّاد) كفى. أطلقوا سراحها. كاتالينا ليست ساحرة.

الجلاد : (يخلع القناع والقفازات) هذا واضح يا سيدي العُمْدة.. لو كانت ساحرة لاعترفت... لقد كويتها بالنار كما يجب.

السمَّاك: (بتأمُّل) إيه.. يا للقسوة... كَيُّ امرأةٍ عجوز بالنار...

العمدة : أنا نفسي متألِّم عليها... ولكن، أليس علينا أن نحدد في نهاية المطاف إنْ كانت ساحرة أم لا؟

السمَّاك: طبعاً، طبعاً. لكنّي أردت القول إن هذه العملية تجري في مدينة بريوغي بشكل أكثر إنسانية... هناك يربطون المرأة ثم يلقونها في النهر.. فإن غرقت فهي ليست ساحرة.

الجلاد : لكن لا يوجد نهر في مدينتنا!

السمَّاك: (بحزن) نعم، نعم... أمر يدعو للأسف!

الراهب: (بصوتٍ يستدرُّ الشفقة) اشتروا صكوك الغفران.. اشتروا صكوك غفران الذنوب...(يظهر كلاس فيندفع الجميع نحوه بسرعة).

العمدة : ما هي الأخبار؟.. كيف حالها؟

كلاس : أخذتها زوجتي إلى البيت... يبدو أن كاتالينا قد جُنَّتْ.

- ٢١ -

السمَّاك: مسكينة!.. يا للقسوة...

الجلاد : (ينتحي بكلاس جانباً) كلاس، لقد بذلت كل ما بوسعي... كويتها بكل حذر.

كلاس : (بشرود) نعم، نعم. أحسنت!

الجلاد : لجأت إلى الحيلة، بللت حزمة الحطب. دخان كثيف ونار قليلة... وهذا خفَّف آلامها.

كلاس : نعم، نعم... أشكرك.(يعطي الجلاَّد نقوداً).

الراهب: اشتروا صكوك الغفران... اشتروا صكوك غفران ذنوبكم.

العمدة : (يخرج حافظة نقوده) اعطني واحداً أيها الراهب. وليغفرِ الربُّ قسوتنا. (يشتري صكّاً).

كلاس : (بحزم للسماك) وأنت يا إيوست؟

السمَّاك: ماذا؟ هل تعتقد أن الذنب ذنبي؟.. كلاس، أنا لم أُصِرَّ على تعذيبها. لقد أردت إيضاح الحقيقة فقط. أنت رأيت بنفسك كيف طبخت كاتالينا الأعشاب وهي تبربر طول الوقت... كانت ترى مختلف الرؤى!.. لقد نصحتها كما ينبغي على الجار تجاه

جاره. قلت لها: يا كاتالينا، لا داعي لهذه الرؤى!.. لكنها لم تصغ إليَّ. (يأخذ نَفَساً عميقاً) الحمد لله، ثَبَتَ أنها ليست ساحرة. ومع ذلك فإن التكفير عن الذنب شيء مفيد دائماً. (يبحث في جيوبه) كلاس، ألا تقرضني فلورينا واحداً؟

كلاس : (يمدُّ له حافظة نقوده) خذ.. خذ أكثر!

السمَّاك: (ينظر إلى محتويات المحفظة) من أين لك بكل هذه النقود؟!

كلاس : لا تَخَفْ... نقودٌ حلال! ورثتها عن أخي المتوفَّى.

السمَّاك: كيف؟ أخوك.. مات؟ أهنئك يا كلاس... أو بالأحرى أعزيك.. على العموم أنت تفهم قصدي، أليس كذلك؟ أناس محظوظون!.. يعيش الإنسان، يعيش.. وفجأة يتوفى أخوه! (يشتري صكّاً).

العمدة : (يقترب من كلاس) إذا قابلت كاتالينا فبلِّغْها أسفي العميق... لم يحدث هذا إلا في يوم البازار.. آخ! (يهزُّ رأسه ويغادر المكان. يتبعه السماك والجلاد. كلاس والراهب يبقيان على خشبة المسرح).

لامـــي

(يظهر لامي وهو يقود زوجته كاليكين من ذراعها)

كاليكين: لا داعي يا حبيبي لامي.. لِنَعُدْ إلى البيت...

لامي : كلاَّ. ليحكمِ الناس بيننا. إذا كنت لا تصدقينني فاستمعي لإنسان عاقل. ها هو كلاس. عاش حياة حافلة وهو أعقل منا نحن الاثنين.

كاليكين: شيء مخجل يا لامي!..

لامي : ليس هناك ما يخجل... أمر عادي.. كلاس، أحكم بيني وبين زوجتي!

كلاس : مرحباً يا لامي.. مرحباً يا كاليكين.

كاليكين: مرحباً بالعم كلاس.. هدِّئه يا عَمِّي. (تشير إلى زوجها).

لامي : لحظة... دعيني أشرح له. كلاس، أنت تعرف أنني تزوجت هذه المرأة لأنني وقعت في حبها.. كل شخص يقع في حبها إذا لم يكن أعمى. تكفي نظرة إلى هذين الخدِّين المورّدين، إلى عنق البجعة هذا،

إلى هاتين الكتفين المرمريتين، إلى هذا الصدر الأملس، إلى هذا البطن المتين، إلى هاتين الساقين الملفوفتين، إلى هاتين الركبتين المدوَّرتين...

كاليكين: (بخجلٍ) لامي!

لامي : لا تقاطعيني (لكلاس) وهكذا فإنني تزوجت كل ما ذكرت، أما زوجتي فترفض مشاركتي المتعة الزوجية الشرعية لأن هناك من أوحى لها بأن هذا خطيئة.

الراهب: أنت على حق يا ابنتي. هذه خطيئة لا تغتفر!

لامي : (للراهب) لا تتدخل يا أبتي. (لكلاس) ما هذه المصيبة؟ ما إن تقابل راهباً أو مخصَّياً، عفَوك يا ربّ، حتّى يدسَّ نصائحه للعرسان!.. قلت لها: اسمعي يا زوجتي العزيزة، إن الربَّ لم يخلق الرجال والنساء كي يتسلُّوا بالأحاديث عن الفلسفة في الفراش. لقد خلقنا الرَّبَّ للحبِّ! أمَّا هي...

كاليكين: العفة طريق الكمال. لا تفكِّر بالجسد يا لامي، بل فكِّر بالروح!

لامي : روحي كبيرة يا عزيزتي، ولكن جسدي أكبر بكثير. فكيف لا أفكرِّ فيه؟!

كلاس : هل يدور هذا الجدل بينكما منذ مدَّة طويلة؟

لامي : من يوم العرس.

كلاس : مسكين يا لامي. (لكاليكين) من أوحى لكِ بهذه الحماقة يا ابنتي؟

كاليكين : واعظ الكنيسة.

كلاس : (بغيظ) تيس عجوز! أو لم يخطر بباله، أنه لو كان أحدهم قد أوحى لأمه بمثل ما يوحي إليك، لما كان له هو نفسه من وجود؟ يا ابنتي، ليس في العالم أنقى من خطيئة الحب... أنت تحبين لامي، أليس كذلك؟

كاليكين: (بحياءٍ) أحبه.

كلاس : وهل يمكن ألاَّ يحبَّ الإنسان شخصاً مثل لامي؟ تكفي نظرة إلى خدِّيه المورّدين، إلى عنق البجعة هذا، إلى هذا الكرش الضخم، إلى هاتين الساقين العوجاوين... (كاليكين تنظر إلى لامي بحنان. لامي يمدُّ لها ذراعيه فتخطو نحوه بتردُّدٍ ثم تقفز مبتعدة عنه).

كاليكين: لا، لا! لا يمكن! لقد أقسمت للسيدة العذراء.

لامي : (يائساً) لكنك سبق وأقسمت لي أوّلاً! يا ربّ، من يستطيع أن يعيد لهذه المرأة عقلها؟! تيل.. أين تيل؟!

كلاس : يتسكّع في مكان ما.. ابن الشيطان! سيأتي بعد قليل، فقد بدأ البازار بالحركة...

البازار

(يظهر في الساحة باعة وحرفيون ومواطنون تواكبهم ضجّة البازار.. بينهم السمّاك والجلاّد. ضجّة، لغط، وأغانٍ. صاحب الحانة يدحرج برميلاً من البيرة).

الخمّار: بيرة، بيرة، من يريد بيرة طازجة! (يقترب منه بضعة أشخاص ومعهم أقداحهم. يفتح قعر البرميل فجأة فيخرج منه تيل) أنت؟

تيل : أنا.

الخمّار: والبيرة؟

تيل : (يمسّد على بطنه) هنا. إن كنت غير راضٍ فأستطيع إعادتها...

الخمار : سأقتلك. (يركض وراء تيل الذي يتملَّص منه).

كلاس : لا تغضب أيها الخمار. أنا سأدفع لك. (يعطي نقوداً للخمار).. (بغضب لتيل) متى ستعقل يا ابن الشيطان!

تيل : لا تُهِنْ أبي يا والدي!

لامي : أين كنت؟ بحثت عنك في كل مكان...

تيل : وأنا أيضاً كنت في كل مكان. عجيب أننا لم نلتق...

السمَّاك: متى ستعقل يا تيل؟

تيل : بعد الموت مباشرة.

الجلاد : سيقطعون لسانك يوماً ما.

تيل : شيء رائع! حينها سيكون في فمي مكان أوسع للطعام.

الراهب: اشتر صكَّ غفران يا بني. اشتر صكَّ غفران الذنوب.

تيل : فكرة ممتازة. وهل يمكن شراء صك لغفران ذنوب المستقبل؟

الراهب: لمائة سنة مقدَّماً إن أردت.

تيل : يُستَبعد أن أعيش مثل هذه المدة. (يتناول من جيبه قطعة نقدية معدنية) اقطع لي صكاً لغفران الذنوب لنصف الساعة القادمة يا أبتي.

(يأخذ الراهب القطعة النقدية ويناول صكاً لتيل.
تيل يخطف حافظة النقود من جيب الراهب)

الراهب : توقَّفْ! ماذا تفعل؟ أَعِدْ لي حافظة نقودي!

تيل : (يتملَّص من الوقوع في يد الراهب) هذا الذنب مغفور لي مسبقاً أيها الراهب. لقد اشتريت الغفران مسبقاً، والله شاهد على ذلك! (الجميع يضحكون)

كاليكين : (بتوسل) لا داعي يا تيل. لا تضحك من رجال الدين. هذا فأل سيئ.

تيل : (وقد انقلب جدِّيًّا فجأة) تقولين لا تضحك؟! وماذا بقي لنا غير هذا يا كاليكين؟ (يرمي حافظة النقود للراهب بازدراء) هؤلاء الآباء أصحاب الكروش ملأوا فلاندريا كالجراد. بفضلهم كثرت المشانق في الساحات وأصبح الدخان عابقاً برائحة اللحم البشري! الإسبان يستولون على بيوتنا، والملك فيليب يسلبنا

أموالنا، وقضاة محاكم التفتيش يأخذون أرواحنا، أما نحن فلا نملك حتى حق الضحك؟! لماذا نعيش إذن؟!

السمَّاك : (يتقدم بسرعة ويمسك تيل من ذراعه) تيل، أرجوك لا تضف أية كلمة! يوجد هنا غرباء وشهود!

تيل : ألست على حق؟

السمَّاك : بصفتي أكبر منك سناً، وبصفتي صديقَ العائلة، اسمح لي أن أنصحك بالسكوت يا تيل!.. إنهم يُلقون الإنسان في السجن فوراً على مثل هذه الكلمات!.. أسكت رحمة بأمك وأبيك وبي... لأنني سأكون مضطراً لأن... المزاح شيء مفهوم، أمَّا الجد... لا داعي!

تيل : نعم... أنت على حق دائماً يا إيوست... كالعادة! سوف نمزح إذن! (يتناول إطاراً دائرياً كبيراً) انظروا أية طرفة جديدة اخترعت. هذه مرآة. كل شخص يستطيع أن يرى نفسه فيها. مقابل فلورينٍ واحد أقدم لكم صورة مشابهة كاملة!.. (يدخل في الإطار ويُغنِّي).

أيُّهـــا العـــابرُ مَهّـــلاً وادنُ من هــذا الإطـــارْ
اقتـــربْ بالوجـــهِ حـــالاً كي ترى وجــهَ حمـــارْ

الجميع : (يغنون) لا لا... لا لا، كي ترى وجه حمار.
كلاس : دعني أرَ نفسي يا بني!
تيل : تفضل. (يغنِّي مقلِّداً والده كلاس).

والدي صنوُ التواضعْ اسمه كلاسُ الثَّبــاتْ
يكره الرهبانَ جــدّاً ويحـــبُّ الراهبـــاتْ

الجميع: لا لا.. لا لا.. ويحبُّ الراهباتْ.
السماك: (يضحك) شيء ظريف. وأنا؟
تيل : (يغنِّي مقلِّداً السمَّاك)

أنـــا ســـمّاكٌ شـــهيرْ في مبيعـــي والـــشراءْ
أَعرضُ الأسماكَ للبيـــعِ وحيناً قد أبيعُ الأصدقاءْ

الجميع: لا لا.. لا لا.. قد أبيع الأصدقاء.
السمَّاك: (بحزنٍ) ظريفة... (يخرج).

لامي : تيل.. أرني نفسي!

تيل : (يغنّي مقلِّداً لامي).

أنـــا ذا لامـــي الهُمــامْ   **كلُّ هَمِّي فـــي الطعــامْ**

عُنُقي أضــحتْ كجــذْعٍ   **و بهـــا ضـــاق اللِّجـــامْ**

الجميع : لا لا.. لا لا.. وبها ضاق اللِّجام. (يظهر العُمدة والسمَّاك).

السمَّاك: يا سيِّدي العُمدة. يستطيع تيل أن يريك نفسك إن أردت!

العمدة : ظريف! هيا إذن، أرني يا تيل...

تيل : (بعد تردد). ما دمت قد طلبت.. فاسمع. (يغنِّي)

عُمْدَتُنا شــخصٌ جبَّــارْ   **مرعـــبٌ فـــي كـــلِّ دارْ**

يمطـــر العاهـــلَ لثْمـــاً   **إنَّمـــا تحـــتَ الزُّنَّـــارْ!..**

العمدة : (متجهِّماً) لم أفهم ماذا يقصد؟

السمَّاك: إنه يمزح.. نكتة!

العمدة : «يمطر العاهل لثماً.. إنما تحت الزنار».. وتعتبر هذا مزاحاً مضحكاً؟!

تيل : عفَوك أيها العمدة، لم أكن أعلم أنك تفعل هذا جادًّاً!

السمَّاك: (متوسّلاً) تيل!

العمدة : (متجِّهما) مرَّةً أخرى لم أفهم طبيعة النكتة، على العموم لا داعي لذلك... يا جلاد! (يندفع الجلاد نحو تيل، لكن العمدة يوقِفه بحركة من يده) هذا أيضاً مزاح، أمَّا الجدُّ فسيكون فيما يلي يا تيل أويلين شبيغِل. للصبر حدود. بصفتي عمدة مدينة دامه فإنني أحكم عليك بالنفي! سترحل إلى روما وتطلب الغفران من البابا نفسه، ثم تعود بعد أن تعقَل! انتهى.

كاليكين : أعفُ عنه يا سيِّدي العمدة. لا تغضب منه.

العمدة : لست غاضباً منه يا حلوتي، وإلاَّ لأمرت بإعدامه... (يخرج).

السمَّاك: تيل.. لقد سبق أن طلبت منك ورجوتك، فلماذا تعذِّبني هكذا؟! (يخرج حزيناً)

كلاس : (عابساً) هل انتهيت من اللعب يا أحمق؟ قلت لك أكثر من مرَّة لا تتحرَّش بالإوزّ!

تيل : بودّي أن أشويها، لا أن أتحرَّش بها يا والدي! (ينصرف الجميع عدا تيل. تظهر نيلِّلي).

الوداع

نيلِّلي : تيل! (تندفع نحوه باكية).

تيل : (يمسِّد شعرها) لا تبكي يا نيلّلي، لا داعي! (محاولاً تغيير مجرى الحديث) لا أحد يعرف قيمة هذه النافورة الجميلة في ساحة المدينة!

نيللي : عديم الإحساس! ستتركني سنة بطولها، وربما سنتين...

تيل : ماذا أفعل يا حبيبتي؟ أُفضِّل فراقاً بحرِّيَّةٍ على موعد في السجن مع الحبيبة.

نيللي : وهل فكَّرتَ فيَّ أنا؟

تيل : فكَّرتُ!.. أقسم بحياتي فكرت! عندما بدأت الغناء في وجه العمدة قلت لنفسي « نيلّلي... سيُبعدونكَ عن نيلّلي! » ولكن سرعان ما خطر لي أنني إن جَبنت ولم أُغنِّ فإنّ حبيبتي ستُعرِض عن حبّي.

نيللي : ما هذا الحظ يا ربي؟ كل البنات يقعن في حب شباب يعملون بهدوء، يُكوِّنون عائلات تنجب أطفالاً

ونتفرّج يوم الأحد على غروب الشمس.. أنا وحدي وقع حظي على زوج مولع بالتهريج والتشرد!

تيل : (بحنان) النساء لا يخترن أزواجهنَّ يا نيللي. إن الزوج صليب ربَّانيٌّ كُتب عليكنّ حملُه طول العمر.

نيللي : (بصرامة) أين كنت طول النهار؟

تيل : (مضطرباً قليلاً) لا أذكر.

نيللي : شاهدوك في الغابة مع امرأة إيطالية.

تيل : وماذا أفعل معها في الغابة؟ أنا لا أعرف كلمة واحدة بالإيطالية...

نيللي : (بتوسل) تيل، لماذا تخدعني؟

تيل : نيلِّي، إنني مخلص لك بروحي. لكن لا داعي للدموع. سأشرح لك كل شيء. كنت أبحث عنك منذ الصباح الباكر، وفجأة التقيت تلك الإيطالية التي تشبهك جداً. حتَّى خُيِّل إليَّ.. هذه نيلّلي! ولكنْ عندما ذهبت معها إلى الحرش تيقَّنت مئة بالمئة أنها ليست نيللي. حتى إنني تساءلت: كيف أمكنني الظن بأن كيس القش هذا هو نيللي؟ إنها لا تصلح أن تكون نعلاً لحذاء نيللتي العزيزة.

نيللي : (تبتسم من خلال الدموع) ومن أين تعرف أية امرأة أنا؟ إنك لم تصطحبني إلى الحرش ولا مرة.

تيل : سنذهب إلى هناك يا حبيبتي، أما الآن فدعيني أستمتع بانتظار تلك اللحظة...

نيللي : (تتنفَّس بعمق) حسناً لقد حان وقتُ عودتي إلى البيت. (تناوله صُرَّةً) وضعت لك هنا بعض الزاد للطريق. هل ستتصرف بعقلٍ أثناء الرحلة؟

تيل : لا.

نيللي : هل ستشاكس وتسخر وتهزأ وتتهكَّم؟

تيل : نعم.

نيللي : هل ستسكر وتعربد وتلاحق النساء في كلّ خمَّارة تمرُّ بها في الطريق؟

تيل : نعم!

نيللي : الحمد لله. إذن سافر وأنا مطمئنة عليك. وداعاً. (تنصرف. تيل يشيِّعها بنظرةِ حنان).

تيل : نيللي! (نيللي تلتفت إليه). عديني بأنك لن تبكي على قبري إذا مُتُّ.

نيللي : (وهي تغالب الدموع). لن أفكر حتى بالبكاء...

تيل : وأن تتزوجي فوراً.

نيللي : بأولِ رجل ألقاه في الطريق!

تيل : شكراً. (تخرج نيللي. تظهر سوتكين وكلاس. تقتربان من تيل).

كلاس : تعال نودعك يا بني!

سوتكين: (تعانق تيل). اعتنِ بنفسك يا تيل.

تيل : وأنتِ كذلك يا أمي.

كلاس : لنصمت لحظة قبيل الوداع.

تيل : حسناً. (يجلس الجميع صامتين وكلٌّ يغوص في أفكاره)

سوتكين: (تفكر). كم كبر ابني بسرعة! البارحة فقط كنت أطعمه بيدي، وكان ينام على ذراعي. وها هو ذا اليوم يتركني! اللَّهُمَّ عَجِّلْ برزقي حفيداً فأنا في غاية الشوق لتيل صغير...

كلاس : (يفكر). كم يشبهني هذا الشيطان الصغير! جميل مثلي وقبيح مثلي... إنه يتابع أغنيتي. أنا أغنى إنسان في العالم لأنني أعيش حياتين...

تيل : (يفكر). يا للعجوزين المسكينين! لماذا لا نفكر بوالدينا إلا في لحظات الوداع؟ أما هما فيفكران فينا طول الوقت! إذا جرح واحدنا إصبعه تألَّما، وإذا مرض ارتفعت حرارتهما...

كلاس : (ينهض). حسناً... إلى اللقاء يابني. (يعانق تيل).

تيل : ارفع رأسك عالياً يا والدي ولا تعبس هكذا. لا تنس أنك رب العائلة. (يعانق أمه). لا تبكي يا أمي. ساقاي قويتان، طويلتان وأستطيع الوصول إلى روما بغمضة عين. اذهبا إلى البيت وجهِّزا مائدة الطعام استعداداً للاحتفال بعودتي... (كلاس وسوتكين يخرجان. يظهر لامي وهو يبكي). ماذا حدث أيضاً؟ (لامي يفكُّ الصرة وهو يشهق. يخرج منها زجاجة نبيذ ومرتديلا ثم يبدأ بالأكل). ما لك تبكي؟ أم إن الطعام قليل الملح وتعوِّض عنه بالدموع؟

لامي: هربت زوجتي يا تيل. لقد هجرتني. لماذا تعذبني يا رب؟ (يشرب) ذلك الراهب اللعين لعب بعقلها. (ينهض). اعطني سكيناً لأشق كرشه. (تيل يناوله سكيناً ولكن لامي يستعمله في تقطيع المرتديلاًّ). كم كانت رقيقة، ناعمة، حنونة!.. هل تريد مرتديلاّ يا تيل؟ لقد كانت تُحضر لي أطيب الأطعمة في العالم!.. كانت تغنّي كذلك... كالقبرة.. أين أنتِ يا حبيبتي كاليكين؟ (يشرب)

تيل : يجب البحث عنها.

لامي: إنني أبحث عنها.

تيل : في قعر الكأس؟

لامي: لست أدري إلى أين أذهب... لعل الراهب خبأها في الدير، أو في أحد مدافن الرهبان، لا قدَّر الله. (ينتفض) اعطني فأساً يا تيل لأمزِّقه إرباً إرباً.

تيل : لا توجد فأس... ثم إنك التهمت كل المرتديلا، فما حاجتك للفأس! هيا معي.

لامي : ولماذا أذهب معك؟ يجب أن أبحث عن زوجتي، وأنت يجب أن تذهب إلى روما.

تيل : كلُّ الدروب تؤدّي إلى روما، إذن فطريقنا واحدة، أضف إلى ذلك أن عندي صرة مليئة بالطعام.

لامي : (بفرح) لماذا لم تقل لي؟ (يمدُّ يده إلى الصرة)

تيل : لا، اصبر.

لامي : حان وقت الغداء.

تيل : حرِّكْ رجليك خلفي لتستحقَّ الغداء.. هيّا. (يحمل الصرة على ظهره)

لامي : (بحسرة) هَيَّا. ولكنْ لا تنسَ أنَّ حمل الطعام في المعدة أسهل بكثير من حمله على الكتف.

(يسيران ويغنِّيان).

هاتـــــانِ الـــــساقانِ هُمـــــا

خَــــدمي، حُرَّاســــي، حَــــشمَي

دوقـــاتي - لكـــنْ مـــن عـــدمِ!

دوقـــاتٌ؟ خيـــلٌ؟ محـــضُ هُـــراءْ

أنـــا قـــدّيسٌ فـــي صـــحراءْ.

هــا خَــدمِي، حُرَّاســي، حَــشمَي

أَوْقـــحُ مـــا أعـــرف، لكنَّهمـــا

رأسُ المـــــال، ذُرى الـــــنِّعمِ

وأصـــــون كنـــــوزي بينَهمـــــا

آه تيلـــــي، تيلـــــي، تيـــــلْ:

لـــتكنْ أفـــراحُ العمـــرِ لنـــا

آهٍ تيلـــــي، تيلـــــي، تيـــــلْ!

ولنهـــــــــزأْ بمــــــــــشانقِنا

أَتــــساءلُ عـــن أرضِ الحُلُـــمِ

عــــن جنَّــــاتٍ تُـــــسعدنا

بقــــصورٍ فيهـــا وخمــــورٍ

بملـــــذّاتٍ مـــــلءَ دمــــي

مـــــارتنْ لــــوثرْ والبابـــا

يقتنـــــصانِ اللَّــــذَّةَ خِلْــــسَهْ

وأنــــا أتحَّــــرقُ شــــوقاً

كـــي أَحـــضر يومـــاً جلـــسهْ

نتقاســـــمُ فيهــــا الحُــــوْرْ

مــــع لــــوثرْ ومـــعَ البابـــا

آهٍ تيلـــــي، تيلـــــي، تيــــلْ،

فلنهـــــــزأْ بمـــــــشانقِنا!

فيليب

(غرفةُ نومِ الملك فيليب الثاني. إلى اليمين المخدع المرتفع للملكة ماريا. الملك فيليب يجلس على أحد المقاعد ويقف بالقرب منه رئيس محاكم التفتيش وفي يده محفظة أوراق. يقف أمامهما رسام القصر يستعرض أمامهما لوحات نساء شبه عاريات).

فيليب : (يمعن النظر في اللوحة). هذه... لا بأس بها... (يمعن النظر أكثر ثم يهز رأسه إشارة لعدم الرضا). لا. غير مثيرة... أَبعِدْها. (الرسَّام يغيِّر اللَّوحة).

ماريا : (من داخل المخدع). أكاد أذوب شوقاً يا صاحب الجلالة!

فيليب : (باستياء). انتظري يا ماريا. لست مستعداً بعد. (لرئيس محاكم التفتيش). ماذا هناك من أخبار؟

رئيس المحاكم : عَمَّنْ يا صاحبَ الجلالة؟

فيليب : عنّي أنا.

رئيس المحاكم: مختلف الأخبار يا صاحب الجلالة، ولا سيَّما وأن هناك إشاعاتٍ تجديفيةً تمسُّ شخصكم الكريم!

فيليب : مثلاً!

رئيس المحاكم : في إنجلترا يقولون عنك إنك قاتلُ أبيك وخادمُ الشيطان. في فرنسا يقولون إنك إنسان ساديّ وجلاّد. في ألمانيا يقولون إنك ظالم ومصَّاص دماء...

فيليب : على مهلك، على مهلك يا صديقي...

رئيس المحاكم : في إرلندا صوَّروك على لوح من النحاس وأنت تعزف على بيانو من القطط التي تمسكها من ذيولها...

فيليب : يا للغباء! كان هذا من تسليات الطفولة...

رئيس المحاكم : أخطر الأوضاع في فلاندريا. الهرطقة تعشّش هناك في كل بيت. الناس يسخرون من الرهبان ولا يدفعون الضرائب للكنيسة، وقد انتشر الغوزيُّون في الأحراش...

فيليب : من؟

رئيس المحاكم : الغوزيون. إنهم الشحاذون، قطاع الطرق يا صاحب الجلالة! إنهم يقتلون الجنود الإسبان وينهبون

الأديرة ويطالبون باستقلال فلاندريا عن إسبانيا، يؤيدهم في هذا بعض النبلاء بقيادة الأمير الأوراني...

ماريا : (بدلال). تعال يا صاحب الجلالة! إنني أحترق... أشعر أننا الليلة سنهدي إسبانيا وليّاً للعهد.

فيليب : لقد وعدتِني بهذا في الشهر الماضي يا ماريا، وأنا صدقتك... ثم اتضح أن كل جهودي ذهبت هباء.

ماريا : هذه الليلة لن تذهب جهودك هباء! أُحس هذا بكل كياني.

فيليب : لست مستعداً بعد. (ينظر إلى اللوحة التالية). لا، ليست مثيرة. أَبْعِدْها. (لرئيس المحاكم). لوحات مملّة وأخبار مملة أكثر يا صاحب النيافة. العالم كلــه يكرهني، وأنا مللت الــرد عليه بالطريقة نفسها... ما العمل؟

رئيس المحاكم : اخدم الكنيسة بصدق وإخلاص!

فيليب : أنا أكثر رومية وكاثوليكية من بابا روما نفسه. لكن ما الفائدة من كل هذا؟ هل أصبح عدد الداعين إلى التغيير أقل؟

رئيس المحاكم : يجب إرسال المزيد من الجنود إلى فلاندريا.

فيليب : نزيد عدد الجنود فيزيد عدد الغوزيين. القوة تولِّد القوة، والدهاء يولِّد الدهاء. كم ندفع للوشاة؟

رئيس المحاكم : ثلث أملاك المقتولين بالإعدام.

فيليب : يجب إعطاؤهم النصف.

رئيس المحاكم : النصف للواشي، والنصف للملك، فماذا يبقى للكنيسة يا صاحب الجلالة؟

فيليب : الفكرة. هل هناك أغلى من الفكرة؟ إنكم تسحقون الهرطقة دون مقابل، وهذا يخلف انطباعاً جيِّداً في العقول...

رئيس المحاكم : والملك؟!

فيليب : لا يستطيع الملك أن يعمل دون مقابل لأن نفقاته كبيرة... كما أنني تعبت من الفكر وأريد شيئاً واحداً فقط هو النظام! أريد أن يسمع العامل كلمة رب العمل، وأن يسمع رب العمل كلمة قاضي

المدينة، وأن يسمع قاضي المدينة كلمة الملك!
أريد النظام!

أريد أن ينام الناس في الليل وأن يعملوا في النهار، وأن يتردَّدوا على الكنيسة يوم الأحد بانتظام. كل ما عدا ذلك هو من صنع الشيطان (يقفز من مكانه ويتجوَّل في القاعة بعصبية). النظام! أما الفوضويون فسأقدمهم طعاماً للنار! لقد اختارني الرب للإشراف على النظام، وأنا أنفِّذ هذه المهمة... (يرفع يديه إلى السماء). يا رب امنحني القوة... القوة يا ربَّاه! (فجأة يندفع نحو مخدع ماريا).

رئيس المحاكم : يا صاحب الجلالة...

فيليب : لا، لا تشغلني بأي شيء في هذه اللحظة. (يندسُّ في المخدع).

- **إعتام** -

الاعتقال

(منزل الفحَّام كلاس. سوتكين، كاتالينا، وعلى مسافة منهما نيللي تغنِّي بصوت هادئ).

أغنية نيللي

خرج الصياد إلى البحر الأزرقْ
بحثاً عن حسنِ الطالعْ
الريحُ صديقتُه، لا يخشى
أن يغزو البردُ مفاصلَه
أو أن يغرقْ
إذْ بين جناحيه نارْ
يزداد ضجيجُ الموجِ ويعلو
ويعاجله الموتُ بلا أسرارْ
هذا الأمل القانطُ
أثقلُ من مأساتِهْ
أملحُ من موجاتِهْ
البحَّارُ يجوب عُبابَ الماءِ

ويمضي يسبحُ حتَّى الإنهاكْ

تُبصرُ عيناه الشَّطَّ فيقصدُهُ

كي يَنْعَمَ بالراحة بعضَ الوقتِ

ويمضي... يسبحُ ثانيةً حتَّى

الإنهاكْ.

كاتالينا : (تمسك رأسها بين ذراعيها وتدمدم). رأسي يؤلمني، وروحي تريد الهرب من الجسد... هانس، حبيبي! هانس، تعالَ بسرعة... أين أنت يا خطيبي العزيز؟ يا فارسي الأسود؟ ثلاثة في ثلاثة يساوي تسعة... رقم مقدس. الشخص الذي تضيء عيناه في الليل يستطيع كشف الأسرار...

سوتكين : (تزفر) يا إلهي، كُنْ في عون من فقدت عقلها! منِ الذي تدعوه كاتالينا يا نيللي؟

نيللي : لست أدري!

كاتالينا : هانس إنسان طيب. نيللي شريرة... لماذا ابتعدت يا حبيبي هانس؟ يداي باردتان، رجلاي باردتان، أما قلبي فحارٌّ...

نيللي : إنني أخاف منها.

سوتكين : لا تخافي يا ابنتي. لا يأتي الشر أبداً ممن فقد عقله...

(يدخل كلاس)

كلاس : جئتكم بخبر من تيل. (يخرج فردة حذاء ممزَّقة). أعطاني إيَّاها حاجٌّ قابل تيل في إيطاليا.

سوتكين: (تفحص الحذاء). ماذا تعني هذه الرسالة؟

كلاس : هذا يعني أنه قطع نصف الطريق! هذا يعني أنه سيعود قريباً... رِجْلٌ هنا ورِجْلٌ هناك، كما يُقال. وهذا يعني أنه حان وقت إعداد مائدة الطعام لأن الحذاء يريد أن يأكل!..

نيللي : ألم يبعث رسالة شفهية؟

كلاس : طبعاً! يقول إنه يحب نيللي، وإنه يذكر نيللي، وإنه مشتاق لحبيبته نيللي...

نيللي : إذن لم يكن ذاك الشخص تيل.

كلاس : بل هو تيل.. كان يجلس في الحانة، وكانت تجلس على ركبتيه شقراء سمينة.

نيللي : إنه تيل إذن!

سوتكين : (لزوجها) لماذا تحدثها بمثل هذه الأمور؟

نيللي : لا، لا، لا بأس... في كل الأحوال سأظل أنتظره وأحبه.

سوتكين : أنت فتاة رائعة. أحبيه يا ابنتي... قلبه طيب.

نيللي : (بغضب) قلبه طيِّب للجميع ما عداي. ليس لي عنده إلاَّ عيناه الخبيثتان وأسنانه الطويلة التي يُشرِعُها عليَّ! لي عنده الكلمات الكاذبة ورائحة الشقروات السمينات التي تَشَبَّع جسدُه بها. ليتجرَّأْ ويَعُدْ.. ليتجرأ ويقترب منِّي لمسافة صفعة!..

كلاس : (بجذل) يستحقُّ هذا السافل أكثر!.. سأضيف له صفعة من عندي! لن نتركه إلا جلداً على عظم.

نيللي : سأبصق عليه. سأبصق في وجهه الوقح وأذهب بعد ذلك مع أول شاب ألتقي به في الطريق.

سوتكين: (مداعِبة) كم تكرهينه يا ابنتي! يا له من سعيد! يا لسعدك يا ابني، يا تيل!

(يدخل الجلاد)

الجلاد : نهاركم سعيد.

كاتالينا : (تقفز وتدور في الغرفة) النار! آخ! لا، لا... هانس، حبيبي هانس، أنقذني...

كلاس : (يهدِّئ من روعها) لماذا فزعت أيتها البلهاء؟ إنه الجلاد. تفضل واجلس، فقد جئت وقت الغداء.

الجلاد : (وهو يجلس) لا أريد الأكل، أما النبيذ فلا بأس به...

كلاس : كما تريد... (يصب النبيذ لنفسه وللجلاد) كيف الحال؟

الجلاد : الحمد لله، كالعادة...

كلاس : مهنة متعبة؟

الجلاد : متعبة جداً! طول اليوم وأنا على رِجْلَيَّ... يستدعونني أحياناً حتى في الليل.. للحالات المستعجلة.. حياة صعبة!.. (بخجل) جئتك أيضاً في زيارة عمل...

كلاس : قل ما في صدرك. (يصبُّ له كأساً أخرى).

الجلاد : سَهْلٌ عليك أن تقول «قل ما في صدرك».. (يشرب الكأس) بالمختصر المفيد يا كلاس.. هناك وشاية بك!

كلاس : (محافظاً على هدوئه) هكذا إذن! وما فحوى هذه الوشاية؟

الجلاد : كالعادة، تؤكد أنك هرطوق!.. تسبُّ الكنيسة وتحقِّرُ الأيقونات المقدسة.. إلى آخر ما هنالك! وجاء فيها أيضاً أن أخاك بروتستانتي.

كلاس : أخي توفّي.

الجلاد : وأنت ورثت تركته.. يعني أنك مثله!.. على كل حال، أنا لا أفهم في مثل هذه الأمور الحسَّاسة. لقد أمر القاضي بإلقاء القبض عليك.

كلاس : هكذا إذن!

الجلاد : وقد أراد أيضاً إرسال الجنود لاعتقالك فأقنعته بأنْ لا داعي لذلك.. قلت له أنا سأُحضره بنفسي. إنني، والحمد لله، أعرفه منذ سنوات عديدة!..

كلاس : هل لدينا متَّسع من الوقت لشرب كأسٍ أخرى؟

الجلاد : طبعاً. سأنتظر!

(كلاس والجلاد يشربان بصمت، سوتكين ونيللي تنظران برعب)

كلاس : سيكون محصول الشعير جيِّداً هذا العام!

الجلاد : يبدو ذلك. إذا لم تهطل الأمطار في مايو...

كلاس : يقولون إن شهر مايو سيكون دافئاً.

الجلاد : كان أبريل بارداً، إذن سيكون مايو دافئاً.

كلاس : دافئاً... (ينهض) هيَّا نذهب!

الجلاد : هناك نقطة أخرى يا كلاس... طلبوا منِّي أن أُحضرك مقيَّد اليدين.
(يُخرج حبلاً)

كلاس : ما داموا قد طلبوا منك فماذا تنتظر؟.. (يضع يديه خلف ظهره).

الجلاد : لا داعي، يمكن ربطُهما من الأمام... هذا أفضل لك. (يبدأ بربط يدي كلاس) هكذا ترتاح اليدان أكثر. كما أنني أحضرت حبلاً ناعماً حتى لا يحزَّ في اليدين...

سوتكين: (تطلق فجأةً صرخة مديدة) آ - آ - آ! لماذا؟ (تركع أمام زوجها) لماذا تقبضون عليه؟ اتركوه!

الجلاد : (بانزعاج) لا داعي يا خالة.. لا داعي. كل شيء سيكون على ما يرام.

كاتالينا : (تقفز وتدور في الغرفة) النار! النار! الروح تريد الخروج من الجسد! إقطعوا الرأس!

كلاس : انهضي يا سوتكين... انهضي!

نيللي : (تهدِّئها) لا داعي يا سوتكين. انهضي.. لن يصيبه مكروه. لا يملكون الحق في إيذائه.

سوتكين: (تعانق زوجها) لا تذهب!.. لماذا؟ ليأخذوني معك إذن!

كلاس : سيطلقون سـراحي يا سـوتكين وسوف ترين... (يصرخ بالجلاد) ماذا تنتظر؟ قُدْنِي بسرعة أيها الأحمق!

الجلاد : ما ذنبي أنا؟ هـي التي تؤخِّرنا! (يبعد سوتكين) ابتعدي يا خالة. ما هؤلاء الناس؟

تريد لهم الأفضل.. أما هم.. هيا، هيا يا عم!..

(يسوق كلاس وتتبعهما سوتكين ونيللي)

كاتالينا : (تدور فـي الغرفة وتدمدم) ماء... ماء... حَرٌّ شديد! النار!

- ٥٥ -

(يدخل السمَّاك فترتمي كاتالينا عليه) هانس! لقد جئت أخيراً!

السمَّك : (يبعدها عنه) كاتالينا سبق وطلبت منكِ ألاَّ تناديني بهذا الاسم.

كاتالينا : ولماذا يا حبيبي؟.. هل نسيت حب فتاتك؟.. لا تهجرني يا هانس.

السمَّاك : لن أهجرك، اهدئي... (يتلفَّت) أين الجميع؟ هل أخذوه؟

كاتالينا : ما أجملك يا حبيبي هانس... وجهك ناصع البياض، وعيناك سوداوان ومِهماذاك حادَّان... رأسي تملؤه النيران، افتح لي فيه فتحة...

السمَّاك : انتظري! (يُجلِسُها على المقعد) اسمعي يا كاتالينا...

كاتالينا : هل تحبني؟

السمَّاك : نعم، نعم... اهدئي يا كاتالينا، أنت تعرفين ولا شك أين يخبِّئ كلاس نقوده. هذا مهمٌّ جدَّاً... النقود التي ورثها عن أخيه.

كاتالينا : لا أعرف يا حبيبي. سأبحث عنها.... ألا تريد أن أجد لك كنزاً؟ هناك حيث يُزهِرُ شجر اللَّوز... أنتظر الصيف...

السمَّاك : (بنفاد صبر) ما دخل اللوز في الموضوع؟ النقود هنا في البيت...

(يفتح الباب. تدخل نيللي وهي تقود سوتكين الباكية. صمتٌ)

نيللي : انقلِعْ من هنا!

كاتالينا : اتركيه! هانس طيب.. نيللي شريرة...

السمَّاك : أنا أفهم صعوبة الأمر عليك يا سوتكين، ولكن أرجو أن تفهميني أيضاً... سيكون كل شيء على ما يرام إذا ما اعترف كلاس بكل شيء، وإذا ما سلَّمتم كل النقود... جئت أقول لكم هذا لأنني أحبكم جميعاً كما كنت!

سوتكين : عليك اللعنة!.. إن شاء الله لن تجد قسِّيساً يغفر لك ذنوبك! ليكن الاعتراف عذاباً لك، وكأس الغفران سُمَّاً زُعافاً. ليصبح السُّكَّرُ في فمك ملحاً،

وليتحوَّل لحم البقر في فمك إلى جيفةِ كلبٍ والخبزُ إلى رماد! لتكنِ الشمس عليك جليداً، والثلج نارَ جهنّم! إن شاء الله لن يولد لك إلاَّ أطفال مشوَّهون.. أجسامهم أجسام قرود، ووجوههم فناطيس خنازير. عليك اللعنة ثلاثاً أيها الخائن! ليكن مصيرك العذاب والدموع والأنين في الدنيا والآخرة! لتمزّقِ الشياطين روحك النجسة، وليتحوَّلْ قبرك إلى حفرةٍ للقاذورات. لينهشك دود المزابل جزاءَ ما فعلت، عليك اللعنة. (تقع على المقعد وهي تُجهِشُ في البكاء)

السمَّاك : (بأسىً) ما أقسى قلبك!.. لكني لست غاضباً منك... (يخرج)

كاتالينا : (تدور وتدمدم) يسيل الجدول في السهل نبعاً رقراقاً... الماء فيه صافٍ وبارد... الربُّ وملائكته في أعالي السموات... ثلاثة في ثلاثة تسعة.. رقم مقدس...

- **إعتام** -

الشقراء

(تيل ولامي يندفعان إلى الخشبة وهما يغنِّيان أغنيةً مرحة ثمَّ يتوقَّفان بالقرب من سياج أحد المنازل).

لامي : تيل، تعبت من حمل هذا الكرش الفارغ... تعال نتسول طعاماً من هذا البيت.

تيل : عيب يا صديقي! يمكن شراء الطعام والمبادلة عليه، أو سرقته، أمَّا أن نتسوَّله؟! لا، لسنا متسوِّلَيْن، بل نحن مفلسان!

لامي : (يقترب من السياج وينظر من خلال شُقٍّ فيه) أشمُّ، أشمُّ رائحة لحم مشوي... المرق من عصير البندورة والثوم... يجب إضافة قليل من البهار... يا للجهل، يحضرون المرق بدون بهار!.. (ينظر) ها هي ربة البيت... (ينادي) هِه... يا فتاة! هِه! (يظهر فوق السياج رأس امرأة شقراء)

الشقراء: لماذا تصرخ؟ ثم من قال لك إني فتاة؟

تيل : لا تزعلي من صديقي يا سيدتي، إنه على البركة...

الشقراء: هل أنتم متشرِّدون؟

تيل : نحن.. حُجَّاجٌ يا سيدتي. لقد حججنا إلى روما وقابلنا فيها البابا نفسه!

الشقراء: (غير مصدِّقة) يا للكذب!.. وماذا قال البابا؟

تيل : قال لنا: «يا ولديَّ، إذا ما التقيتما في الطريق بشقراء جميلة اسمها...» ما هو اسمك يا سيدتي؟

الشقراء : بيتكين.

تيل : «إذا ما التقيتما بشقراء جميلة اسمها بيتكين فقولا لها أن تطعمكما وتسمح لكما بالمبيت عندها».

الشقراء: يا للكذب! ومن أين يعرفني البابا؟

تيل : إذا كنت أنت تعرفين البابا فلماذا لا يعرفك هو أيضاً؟

الشقراء: ثرثار. هل عندكما نقود؟

لامي : يا للحمقاء! لو كان عندنا نقود لما تحدثنا مع أمثالك!

تيل : (بغضبٍ مصطَنع) ماذا؟! كيف تجرأت؟ إنك تهين فتاتي بيتكين! ستجري الدماء الآن! (يهجم على لامي)

الشقراء: (تخرج من خلف السياج) هِي... توقَّفْ! (تُمسك بذراع تيل) ستقتله!

تيل : يستحقُّ أكثر! (للامي) اذهب من هنا! اذهب واعتنِ بلحم الضأن يا حقير! وإن نسيت وضع البهار في المرق فستنال جزاءك مني.

(**لامي** يختفي خلف السياج)

الشقراء : يا لك من عصبيّ!

تيل : عندما يهينون المرأة العزيزة عليَّ...

الشقراء : يا للكذب! عزيزة!.. إنك تراني لأول مرة...

تيل : والأحلام؟ كم مرة رأيتك في أحلامي... والبارحة بعد الغداء... جلسنا أنا وأنت بجوار بعضنا البعض... (يُجلِسُها ويعانقها) كانت ذراعي فوق كتفك، ورأسك اللطيف فوق كتفي... وهمستِ لي...

الشقراء : (تكاد تذوب) ماذا همستُ لك؟..

تيل : همستِ لي: تيل، حبيبي تيل، إنني أنتظرك منذ زمن بعيد...

- ٦١ -

الشقراء : (تردِّد بصوتِ نيللي) تيل، حبيبي تيل، إنني أنتظرك منذ زمن بعيد...

تيل : تعبت عيناي وهما تنظران إلى الطريق...

الشقراء :تعبت عيناي وهما تنظران إلى الطريق...

تيل : قلبي يعتصره الشوق...

الشقراء: قلبي يعتصره الشوق...

تيل : متى ستعود لحبيبتك نيللي؟

الشقراء: أنا اسمي بيتكين.

تيل : لا تجادليني يا حبيبتي. أنا أعرف... (يعانقها)

(يظهر جنديان إسبانيان. يلمس أحدهما كتف تيل)

الجندي : تيل أويلين شبيغل!

تيل : (منزعجاً) ألا ترى أنني مشغول؟

الجندي : انهض يا كلب عندما يخاطبك جندي إسباني!

(تيل ينهض بتثاقل)

ارفع يديك! أدر ظهرك. (يفتِّشه)

تيل : لا تدغدغني فأنا أغار وأضحك بسرعة...

الجندي : لن يكون عندك وقت للضحك! هيَّا. (يدفع تيل في ظهره)

تيل : ألا تتفضل وتقول لي إلى أين؟

الجندي : سترى! زررْ سروالك...

تيل : (يعدِّل ملابسه) عفواً! (للشقراء) لا، لا يا سيدتي، لا تلبسي ملابسك لأنني سأعود بسرعة...

الجندي : (ساخراً) في القيود!

تيل : (للشقراء) لا تخافي يا حمامتي، لأنهم لا يستطيعون تقييد كل أعضائي... (يظهر لامي)

لامي : الطعام جاهز! (وقد رأى الجنود) يا إلهي، يبدو أننا سنبقى جائعين مرة أخرى...

الجندي : (لتيل) هذا الأبله معك؟

تيل : معي.

الجندي : (للامي) تحرَّكْ أنت أيضاً.

الشقراء : (تصرخ بعد أن أدركت ما يجري) اتركوه أرجوكم... إنه خطيبي... (تولول) إنه إنسان طيِّب!

(الجنديان يقودان تيل ولامي).

صورة صاحب الجلالة

(قاعة في قصر الملك فيليب الثاني. الملك فيليب والملكة ماريا يلعبان النرد)

فيليب: (يلقي الزهر) دوساية.

ماريا : أنفك كوساية... (تلقي الزهر) دوشيش!

فيليب : أم كريش. (يلقي الزهر) اللعنة، مرة أخرى لا يحالفني الحظ!

ماريا : أنا ربحت يا فيليب! (تمدُّ ذراعيها نحوه)

فيليب : (يطلق زفيراً) نعم، نعم ربحت. (يعانقها ويقبِّلها دون رغبة. ماريا تضمُّه بقوَّة، لكنه يتملَّص من بين ذراعيها) توقَّفي يا ماريا!

ماريا : (متأثرة) لماذا هذا البرود تجاهي يا صاحب الجلالة؟ لمن توفِّر عواطفك!... للأمير إيبولي؟ أم لإحدى العاهرات من نساء الحاشية؟

فيليب : ما هذه التعابير السوقية يا ماريا؟

ماريا : أنا أحبك يا فيليب!

فيليب : كثرة ترددك لهذه الكلمة تجعلني أشكُّ في حبك لي!

ماريا : لقد برهنت لك على صدق عواطفي نحوك أكثر من مرة.

فيليب : العواطف ليست فرضية تحتاج إلى براهين. إما أن تكون موجودة أو غير موجودة.

ماريا : هل يعني هذا أنك لا تؤمن بالحب؟

فيليب : (مشمئزّاً) تقصدين الوثنية؟ أفروديت وميديا وما شابه، كلها أوثان بدائية على الطريق إلى الإلوهية الحقيقية...

ماريا : لماذا تزوجتني إذن يا فيليب؟

فيليب : من أجل إسبانيا. من أجل وليِّ العهد. من أجل الشعب. كل شيء للآخرين يا ماريا، أما نحن فلا يبقى لنا سوى المرض والموت... (يدخل الجندي)

الجندي: لقد أحضرناه يا صاحب الجلالة.

فيليب : حسناً. أدخلوه.

(الجندي الثاني يُدخِلُ تيل)

ما اسمك؟

تيل : تيل أويلن شبيغِل.

فيليب : أويلنيشبـــ... اسم صعب على النطق.

تيل : جِّداً، يا صاحب الجلالة. لهذا نادِني بـــ «هي، أنت!»

فيليب : هل أنت مهرِّج؟

تيل : إلى حدٍّ ما. فضلاً عن أنني طبيب وموسيقي ورسام.

فيليب : أنت الذي رسمت صورتي على جدار المدينة؟ بأُذُنَيْ حمار...

تيل : أنا، يا صاحب الجلالة!

ماريا : يا للوقاحة!

فيليب : لا تتدخَّلي يا ماريا. (لتيل) لماذا اعترفت بفعلتك؟ ألا تخاف الموت؟

تيل : أخاف يا صاحب الجلالة. لكنّي أشكّ في أني سأموت قريباً.

فيليب : بالمناسبة، أسلوبك في الرسم لا بأس به... ألوان زاهية، ريشة ثابتة، وترسم الملامح بكل راحة

تجعل الإنسان يحس بالمدرسة الفلامنكية... اسمع «هي، أنت» ألا يمكنك رسم لوحة جدِّيَّة؟

تيل : كل اللوحات أرسمها بالجدِّيَّة نفسِها!

فيليب : لكنْ هذا طلبٌ خاصّ. سندفع مقابل اللوحة مبلغاً محترماً...

تيل : آه، بدأ الإلهام يدبُّ في كياني! ماذا يجب أن أرسم؟

فيليب : صورتي مع رجال الحاشية...

تيل : بالحجم الطبيعي؟

فيليب : (ممتعضاً) حاول أن تكفَّ عن المزاح ثانية واحدة... أنت تعلم أنه يوجد عندنا في القصر عددٌ كافٍ من الرسامين المشهورين، لكنني أريد أن يرسمني شخص فلامنكي... وسوف أقدِّم هذه اللوحة هدية لفلاندريا، لكي يروني هناك بعينِ مواطنٍ لهم... أنت! أعرف أنك تكرهني في أعماقك، ولكن إذا كنت فناناً حقيقياً فعليك أن تكون موضوعياً... أنا، كما ترى، لا أحمل أذني حمار ولا أشبه الشيطان... أضف إلى ذلك أنني

طيِّب القلب، فأنا لم أُعدمك بل أقترح عليك عملاً مشرِّفاً... وأتحدَّث معك حديث النّدِ للنّدِ...

تيل : أُقدِّر هذا فيك يا صاحب الجلالة.

فيليب : كذَّاب. قد تُقَدِّر هذا في وقتٍ لاحق، أما الآن فلا داعي للكذب. قل لي كيف تتصور تكوين اللوحة التي سترسمها؟ أريدها أن تُعجب مواطنيك في فلاندريا.

تيل : من تريد أن تضمَّ اللوحة من المقرَّبين؟

فيليب : الملكة.. قاضي التفتيش.. دوق ألبا.. وعدداً من الأمراء. من تقترح أيضاً؟

تيل : ثُلَّة من ذوات الأربع!

فيليب : من؟

تيل : كلاب الصيد يا صاحب الجلالة. ثُلَّة من كلاب الصيد ستزيِّن اللوحة جداً. أوَّلاً، لأنَّ الشعب في فلاندريا يحب الحيوانات، وثانياً، لأن كلاب الصيد أخلصُ أتباعك، فهي لا تطمع في عرشك... عفواً!

فيليب : تابع!

تيل : أقترح رسم الملكة ماريا من الجانب، لأنها رائعة لدرجة لا حاجة معها لإبرازها كلها للفلامنكيين... يكفيهم النصف!

ماريا : فيليب، إنه يسخر!

فيليب : تابع.

تيل : أما رئيس محاكم التفتيش فأقترح رسمه من الخلف حفاظاً على سلامته، حتى لا يعرفه الفلامنكيون بالوجه. أما دوق ألبا الذي يسميه الشعب عندنا بالسفَّاح، فسأرسمه بشكل رمزي: كومة تراب غُرسَ فيها صليب ولوحٌ كتب عليه «ألبا»!

ماريا : ألن يتوقَّف عن السخرية؟!

فيليب : وأنا؟

تيل : أما أنت يا صاحب الجلالة، فاقترح رسمك بصورةِ طفلٍ صغير ذي شعرٍ أشقرَ وعينين زرقاوين. بهذا الشكل نُثبت للفلامنكيين أنك أيضاً إنسان ولدته أمٌّ، وكانت تغنِّي له أغاني المهد كالأطفال الآخرين...

فيليب : (ينتفض واقفاً ويقترب من تيل) لماذا؟ لماذا تتصرَّف بهذه الطريقة؟ إنك لم تترك لي خياراً آخر...

تيل : أعرف يا صاحب الجلالة، لكني لا أستطيع السيطرة على نفسي.

فيليب : (بغضب) قملة! وكل بلدك فلاندريا ما هي إلا قملةٌ على جسد الرب! التفاهم معكم مستحيل، لهذا يجب إحراقكم كالبيوت الموبوءة بالطاعون! (يصرخ) أيها الجندي..أَركِعْهُ على ركبتيه! (يسرع الجندي ويُرْكِعُ تيل) سكِّيناً!

(يستلُّ الجندي سكِّيناً ويضع حدَّها على عنق تيل) ستُذبح الآن هنا كما تُذبَحُ الدجاجة...

ماريا : (بهلع) فيليب، اسمح لي بالانصراف!

فيليب : ابقي يا ماريا. إنك ملكة! فلتكن عندك الشجاعة! (لتيل) اطلب.. اطلبِ الرحمة يا حقير؟

تيل : ما الفائدة؟ إنك لن تُلَّبي طلبي الأخير!

فيليب : أطلب، إنني ألبي طلب المحكوم عليه بالإعدام.

تيل : ليس بمقدورك تلبيةُ طلبي؟

فيليب : إنك لا تعرف حدود قدرتي أيها الغبي! اطلب!

تيل : وعد ملك؟

فيليب : وعد ملك.

تيل : قبِّلني يا صاحب الجلالة من ثغري الذي لا أتكلم به بالفلامنكية (ينحني مشيراً إلى مؤخِّرته)

ماريا : تفو! (تشيح بوجهها).

فيليب : (بعد فترة صمت) برافو! (يصفِّق) برافو! (للجندي) اتركه! (يلقي لتيل بكيسٍ من النقود) انصرف من هنا أيها المهرِّج. لقد سلَّيتني. كما أنني أكثر منك حيلة، أردتَ الموت بطلاً فتركتُك مهرِّجاً. اذهب وبلِّغ مواطنيك أنَّ الملك فيليب الثاني رجلٌ عظيم، فهو قادر على العفو مثلما هو قادر على الإعدام... انقلِعْ! (الجندي يُخرِجِ تيل).

ماريا : (تقترب من فيليب وتلمس ذراعه) كم أنت كريم يا صاحب الجلالة...

فيليب : (يصرخ) اخرسي أيتها الغبية! (يرتجف بأسى) عانقيني يا حبيبتي. إني خائف...

الإعدام

جرس المدينة يقرع بشدة. في الساحة التي تطل عليها محكمة المدينة أقيمت منصَّة تؤدِّي إلى عمق خشبة المسرح، إلى مكان تنفيذ الإعدام. يظهر رئيس محاكم التفتيش والقضاة ثم يجلسون أمام المنصة يحيط بهم المواطنون. الجندي والجلاد يسوقان كلاس المقيد... تغطي الجروح والكدمات وجهه وجسده نتيجة التعذيب.

كاتالينا : (تندفع إلى المقدمة) الشمس! الشمس البيضاء! اليومَ عيد المرج. ثلاثة في ثلاثة رقم مقدس (تجلس).

العمدة : أفتتح الجلسة الأخيرة من محاكمة الفحام كلاس المولود في مدينة دامه والمتزوج من سوتكين المولودة في مدينة يوستنس. على مدى خمسة أيام وهيئة المحكمة المؤلفة من صاحب النيافة رئيس محاكم التفتيش ومني أنا عمدة المدينة، وقاضيين آخرين عيَّنتْهما هيئة التفتيش، تنظر في جريمة كلاس. وبالنتيجة قررت مايلي:

أوَّلاً: منذ مدة طويلة كَفَرَ الفحَّام كلاس بالكنيسة الرومية المقدسة، وسقط في الهرطقة وجدَّف بحقِّ الربِّ وبابا روما خليفتِه على الأرض. حَقَّر الأيقونات المقدسة ووصفها بأنها «أوثان تافهة» (يُصلِّب).

ثانياً: كان الفحَّام كلاس على علاقة مستمرة مع أخيه البروتستانتي الهرطوق. وبعد وفاته ورث عنه مبلغاً من المال رفض تقديمه لخزينة الملك والكنيسة وفقاً للقانون. كلُّ ما ورد ذكره أعلاه شهد عليه الواشي الذي تتعهد المحكمة بإبقاء اسمه طيِّ الكتمان. وفي حالة تنفيذ الإعدام تتعهَّد بإعطائه نصف ممتلكات المحكوم عليه.

كلاس : (السمَّاك) لا تفرح يا سماك. لن تستطيع العثور على نقودي.

السمَّاك: وما دخل النقود هنا يا كلاس؟ كم تسيء الظنَّ بي يا صديقي!..

رئيس المحاكم: الكلام ممنوع أيها الفحام. أجب فقط على أسئلة المحكمة. هل تعترف بذنبك؟

كلاس : طرحوا عليَّ السؤال نفسه تحت التعذيب يا صاحب النيافة.

رئيس المحاكم: أجب دون لفّ أو دوران. هل تعتبر الدين الكاثوليكي الدين المقدس الصحيح الوحيد أم لا؟

كلاس : لا. لكلِّ إنسانٍ الحقُّ في اعتناق الدين الذي يشاء.

رئيس المحاكم: هل تعتبر بابا روما خليفة الرب على الأرض أم لا؟

كلاس : نعم. ولكن بالمقدار نفسه الذي يُعْتَبَرُ فيه كلُّ إنسان خليفةَ الربِّ، لا أكثر.

رئيس المحاكم: هل تؤمن بالسيدة مريم العذراء وبابن الرب يسوع المسيح؟

كلاس : أؤمن. أؤمن بمريم زوجةِ يوسف النَّجار، وبابنهما الملقَّب يسوع على أنه إنسان مثلي ومثل ابني.
أؤمن باستقامته وطيبته، وتعجبني شجاعته باستقبال الموت.

رئيس المحاكم: (لعمدة المدينة) أعتقد أنه لا فائدة من متابعة الأسئلة. هذا المجرم يستغل التحقيق لنشر أفكاره السامَّة. يمكنكم إصدارُ الحكم.

العمدة : دقيقةً واحدة يا صاحب النيافة... (يتوجَّه لكلاس) نحن نعرف بعضنا بعضاً منذ سنوات عديدة أيها الفحام، ويؤلمني انحدارك إلى هذا الدرك من الهرطقة... ما زال هناك متَّسع من الوقت للتوبة.

كلاس : ليس هناك ما أتوب عنه يا قاضي القضاة. كان عندي ما يكفي من الوقت للتفكير في ذلك...

العمدة : (للجنود) أحضروا سوتكين.

كلاس : إنني أحتجُّ! لقد عذَّبوني طول الأيام السابقة... و أنتم لا تملكون الحقَّ بتعذيبي في يوم إعدامي!

(الجنود يُحضِرون سوتكين)

العمدة : أيتها المرأة، إني أتوجه إلى قلبك، إلى عواطفك. زوجك هذا سوف يحرق إذا لم يَتُبْ ويطلبِ الرحمة... قولي له!

سوتكين: ماذا؟

العمدة : أنتِ أعلم.. بضع كلمات!

سوتكين: لقد عشنا معاً خمساً وعشرين سنةً يا قاضي القضاة، وخلال هذه المدَّة تعلَّمنا أن نتفاهم دون كلام...

- ٧٥ -

كلاس : شكراً يا سوتكين.

العمدة : إنكِ لستِ امرأة. إنكما لستما من البشر وقلباكما قطعتان من حجر!

كلاس : لا تصدِّقيه يا زوجتي!.. قلبُك لا مثيلَ له... سأنتقل بعد الموت إلى هنا، حيث الهدوء والراحة الأبدية...

سوتكين : (بحنان) يا زوجي العزيز... سألحق بك بعد مدة قصيرة.

كلاس : لن نفترق يا حبيبتي... عندنا تيل!

رئيس **المحاكم**: (ينهض ويقرأ الحكم) إن محكمة التفتيش المقدسة في مدينة دامه، وبعد النظر في قضية الملحد كلاس، قررت أنه مذنب ثَبَتَتْ عليه بالدليل جريمة الهرطقة. لهذا فإنَّ المحكمة تحكم عليه بالموت حرقاً على نار خفيفة أمام دار البلدية.

(اضطراب وهمهمة بين الجمهور)

العمدة : (يقفز من مكانه) إنني أحتجُّ يا صاحب النيافة! كلاس مجرم، هذا لا جدال فيه. لكنه عاش حياة شريفة، واشتغل بشرف كذلك. كل الناس في

المدينة يحبونه ويحترمونه. وبصفتي ممثلَ مجلس المحافظة فإنني أطالب بحرقه على نار حامية! يجب على الكنيسة أن تكون رحيمة يا صاحب النيافة!

أصوات : صحيح! على نار حامية!.. لا يجوز تعذيب الإنسان على نار خفيفة!

رئيس المحاكم: إذا كان هذا المجرم لا يفكِّر بمصير روحه فليتعذَّب جسدُه! محكمة التفتيش تطالب بالحرق على نارٍ خفيفة!

أصوات : سفَّاحون!.. هذا غير معقول!..

(من بين الجمهور يتقدَّم صاحب خمَّارة البيرة)

الخمَّار : يا صاحب النيافة! اسمحوا لي بكلمة. أنا إنسان بسيط. كلنا هنا أناس بسطاء، ونحن نعتقد أن الحكم جائر يا صاحب النيافة. هذا الفحَّام مواطن محترم من قبل الجميع، لم يأخذ في حياته قرشاً واحداً حراماً.. ثم هل نحن وحوش أم بشر؟!

(يصرخ) نطالب بالحرق على نار حامية!..

(الجمهور يردِّد النداء).

العمدة : لا أضمن الهدوء في المدينة إذا أصررت على النار الخفيفة يا صاحب النيافة!

رئيس المحاكم: (يتهامس مع القضاة) حسناً! أخذت المحكمة التماس المواطنين بعين الاعتبار. كلاس سوف يحرق على نار حامية.

الجمهور: هذا شيء آخر!.. قال... على نار خفيفة قال!.. هذا ما كان ينقص!..

كلاس : أشكرك يا حضرة العمدة. (ينحني للجمهور) أشكركم لأنكم ساعدتم فحَّامكم في اللحظة الأخيرة الحرجة... والآن سأطير مبتعداً عنكم كالشرارة.. الفحم الذي صنعته بيدي لن ينفد قبل مرور مدة، وعندما ستتحلقون حول مدافئكم فسوف تتذكرون العم كلاس وأنتم تنعمون بدفئه بعضاً من الزمن... بودِّي أن أقول شيئاً واحداً أيها الأخوة: أنا أُرثي لكم! أنا سأرحل، أما أنتم فستبقون هنا. سأموت فوراً

وبسرعة، أمَّا أنتم فمكتوب عليكم الموتُ رعباً كلَّ يوم. موتٌ بطيء، أبطأ من الموت على النار الخفيفة!.. إنكم ستتجنَّبون النظر في أعين بعضكم بعضاً مدَّة طويلة من الزمن، لأن أعينكم فارغة إلاَّ من الرعب... ولن تفهموا الراحة التي يحصل عليها الإنسان عندما يطرد هذا الرعب من داخله... ها أنا ذا قد طردته وانتهى الأمر.. أصبحت حَّراً كالطير... وسألقى الرب في السماء لقاء النّدِ للنّد. سأعانقه عناق الأخْوة ثم نحلِّق بين الغيوم... ولن يكون في داخلنا ذلك الرعب الذي يشدُّ الإنسان إلى الحضيض دائماً... الوداع أيها الأخوة! لا تزعلوا من هذه الكلمات المُرَّة التي أقولها لكم قبيل الوداع، فالكلمات المعسولة قبل الإعدام تثير الغثيان.

الجلاد : (يلمس يد كلاس) حان الوقت يا عم!

كلاس : هيا يا صديقي!.. لا تتردَّد! الشغل هو الشغل!

(يصعد الجلاد وكلاس إلى منصة الإعدام. يقرع الجرس. يظهر تيل ولامي وهما يغنِّيان أغنية مرحة)

تيل : (بمرح) إيه... ما أكثر الناس! ارفع كرشك يا لامي فقد أعدُّوا لنا استقبالاً حافلاً. مرحباً أيها المواطنون! (يتفرَّق الجمهور فيرى تيل والدَه) أبي! (يهرع نحو والده الذي يضمُّه معانقاً).

كلاس : جئت في اللحظة الأخيرة يا عفريت! وكنت أظن أنه ليس مكتوباً لنا الوداع.

تيل : لماذا حكموا عليك بالإعدام يا والدي؟

كلاس : انتقاماً لكلّ شيء يا بني... لكل شيء دفعة واحدة... لكن اسْمَعْ، قلت لهم هنا عند الوداع كلمة تهزُّ البدن! مللت المزاح. قلت كلمتي بكل صراحة. لا، لا، لا داعي للدموع!.. إنك ما بكيت حتى عندما كنت طفلاً صغيراً، والآن وأنت كالعملاق!.. كيف كنت تغنِّي:

والدي صــنوُ التواضــعْ   ومثـــالٌ فـــي الثَّبـــاتْ

يكـــره الرهبـــان جـــداً   ويحـــــبُّ الراهبــــاتْ!

(يختفي كلاس خلف المِنصَّة. تقرع الأجراس ويتصاعد لهب النيران).

الدُّعاء

(يخرُّ الجميع على ركبهم ويردِّدون الدعاء. رنين أجراس، بريق نيران)

شـــــيطانٌ فـــــي عبـــــدٍ بـــــائسْ

يتطـــــايرُ مـــــع شَـــــرَرِ النيـــــرانْ

أمَّـــــا نحـــــنُ فأهـــــلُ كنـــــائسْ

ننـــــأى بـــــالنفسِ عـــــن العِـــــصيانْ

فـــــا حفظْنـــــا يـــــا ربَّ الأكـــــوانْ

كاتالينا : (تنظر إلى السماء) أجراس.. أجراس!.. لماذا البكاء يا رب؟ لماذا الحزن أيتها السموات؟

(يظهر الجَّلاد ويتوجَّه إلى الجمهور).

الجلاد : انتهى!.. لقد ارتاح من العذاب.

رئيس المحاكم: (ينهض من ركوعه وهو يُصلِّب) يا رب، تقبَّل تلك الروح الضالَّة.

السمَّاك : (ينهض من ركوعه وهو يُصلِّبُ) يا رب أعفُ عن عبيدك المذنبين!

(يقترب من رئيس محاكم التفتيش) يا صاحب النيافة، لي عندك طلب صغير...

رئيس المحاكم: ليس الآن يا صديقي. في وقت آخر!

السمَّاك : أريد أن أعترف لك بالذات.

رئيس المحاكم: وهل تعتبر اعترافك شرفاً كبيراً لي؟ عندي أشغال كثيرة يا عزيزي... (ينصرف)

السمَّاك : (يقترب من العمدة) يا سيدي العمدة... إني أرفض حصتي من أموال كلاس تجنُّباً للتقوُّلات المغرضة.

العمدة : هذا شأنك.

السمَّاك : إني أتنازل عن هذه النقود وأقدمها هدية لمدينة دامه. أستطيع إعلان هذا على الملأ.

العمدة : (متجِّهماً) يكفي إعلانات يا إيوست. اذهب واسترح!.. (ينصرف).

السمَّاك : (للجلاد) اسمع!..

الجلاد : (بغضب) ابتعد عني أيها السافل!

السمَّاك : (للجمهور) اسمع أيها الراهب... هه... أيها الخمَّار. (يشيح الجميع عنه).

الجلاد : (يقترب من سوتكين) لقد أحضرت لك يا خالة... (بين كفِّيه حفنة من الرماد) قلبَهُ الذي تحوَّل إلى رماد.

سوتكين : (تسكب الرَّماد في الحِجاب وتقترب من ابنها) خذْه يا تيل. إنه لا يزال دافئاً...

(تعلِّق الحجاب على صدر تيل) إنه الآن ينبض.

(تنصرف بصمت).

الجلاد : لعنة الله على هذه المهنة. كنَّا أصدقاء... أعزَّ الأصدقاء.

السمَّاك: (يقترب من تيل) يا عزيزي تيل، بودِّي أن أتحدَّث إليك... (تيل يستلُّ سكِّيناً ويتوجَّه نحوه)

ماذا بك؟ هل تريد أن...

الجلاد : (للحضور) هيَّا.. ليذهب كلٌّ في حال سبيله!..

السمَّاك: (يتقهقر متراجعاً أمام السكين) إنه سيقتلني! سيذبحني!..

الجلاد : (للحضور) إلى بيوتكم أيها الأخوة. سيحلُّون المشكلة هنا بدونكم... (ينصرف الناس. الساحة خالية إلا من كاتالينا التي تتابع ما يجري بابتسامةٍ بلهاء. يُلقي السمَّاك نفسه عليها).

السمَّاك: كاتالينا، أنقذيني!

كاتالينا : هانس، حبيبي.. ما أجملك الآن... تعال نَطِرْ من هنا، ما رأيك؟

السمَّاك: (يتركها ويخر راكعاً أمام تيل) ارحمني يا تيل!

تيل : إنَّك لا تستحقُّ الرحمة.

السمَّاك: (يائساً) إذن اقتلني. اقتل هذا الإنسان العجوز... أنا أيضاً تعبت من الحياة. نحن لسنا بشراً، بل

أسوأ من الوحوش!.. نحن لا نعرف الرحمة. هيَّا، انتقم لأبيك واذبح هذا البريء. إنني الآن مستعدٌ للموت... لكنِ انتظر لحظة... سأساعدك. (يتناول من جيبه منديلاً ويعصب عينيه) والآن أصبحت العملية أسهلَ عليك... أنا لا أرى عينيك وتستطيع ذبحي وأنت مرتاحُ الضمير... إنني أذكر عينيك عندما كنت طفلاً صغيراً... كنتُ واقفاً بالقرب من سرير أمك عندما ولدتك... كانت تصرخ من الألم، أما أنا فكنت أمسِّد على رأسها بيدي وأقول لها: «اهدئي يا عزيزتي، ستلدين طفلاً رائعاً». اذبحني يا تيل. ذبح الإنسان شيء في منتهي البساطة. نحن لا نريد فهم الآخرين! وحلُّ المشاكل بالسكين أمرٌ سهل جداً... أنا أختنق بدمائي وأنت تنفِّذ واجب الشرف... وسيقول الجيران: «انتقمَ الجِدعُ لأبيه»

تيل : اخرس يا يهوذا!

السمَّاك: نعم، إنني أحب كلاس كما أَحبَّ يهوذا المسيح. أُحبُّه كما لم يحبَّه إنسان آخر. ارتدَّ الجميع عنه واختبأوا، أمَّا

يهوذا فكان يتألَّم. ولا أحد يعرف حتى الآن من كانت حالته أصعب: حالة المصلوب أم حالة الملعون!... ماذا تنتظر؟ لقد وشيتُ بوالدك. لكن لم يخطر ببالي أنهم سيعدمونه، ومع ذلك كنت واثقاً بأنني سأدفع الثمن... الحقد والانتقام يحيطان بنا من كلِّ جانب!... إنني خائف! لماذا خلقتني في هذا العصر يا رب! لماذا لم تخلقني قبله أو بعده؟! عيناي لا تعرفان النوم يا تيل... إنني أفكِّر، أفكِّر، أفكِّر! اقتلني وخلِّصني. لقد مزّقتني الأفكار وأريد الراحة!...

تيل : أيها الوسخ! (يدفع السماك برجله ثم يلقي السكين جانباً).

السمَّاك: (يرفع العُصابة عن عينيه) كم أنت طيِّب القلب... شبيهٌ بأبيك تماماً. هو أيضاً لم يغضب منِّي، ولهذا فإنني أحبّكم جميعاً... لكنْ سأبلغ غايتي يا تيل، حتى ولو اضطررت للوشاية بالعالم كله... (يخرج).

كاتالينا : (بشرود) هانس إنسان طيب، تيل إنسان طيب. الكلُّ طيبون. اجلس واسترح... هل تريد أن أغنِّي لك أغنية؟ (تغنِّي)

جدولٌ في الحقل يجري

وهــو يختــال كمُهْــرِ

اقترب منّــي صــديقي

ولنَكِلْ للــصمتِ أمــري

(تظهر نيللي)

نيللي : هل دعوتني؟

تيل : لا!

نيللي : سمعتك تنادي...

تيل : لم أنادِ أحداً يا نيللي. (يصرخ) أريد أن أبقى وحدي...

نيللي : حسناً، حسناً، لهذا جئت إليك... (تجلس بالقرب منه) لا داعي للصراخ يا تيل، لا داعي... الصراخ لا يفيد في شيء...

تيل : (يلمس الحجاب على صدره) إنه لا يزال دافئاً يا نيللي.. يحرق الجلد...

كاتالينا: كلاس إنسان محظوظ... خلع جسده واستراح...

تيل : اخرسوا جميعًّاً!

نيللي : هل كنت تتكلَّم مع والدك؟ اعذرنا... لن نضايقك... إنكما لم تلتقيا منذ مدة طويلة... (تقترب من كاتالينا) ناوليني الماء يا أمي...

كاتالينا: (تناولها الإبريق) يا لكما من أبلهين!.. تحبان بعضكما بعضاً، ومع ذلك تتعذبان لأنكما تريدان كل شيء بطريقتكما الخاصة... ألا تدريان أن المكتوب على الجبين لا يمحوه إلاَّ ربُّ العالمين!.. أنتِ وهو! أنتَ وهي! ما أسعدكما معاً!

نيللي : (تقدِّم الإبريق لتيل) اشرب يا تيل. يجب أن تنسى...

كاتالينا: اشرب من ماء الغابة. لقد جمعته بنفسي. إنها دموع الصخور، ندى الغيوم... اشرب منها تشعرْ بالخدر يتسرَّبُ إلى أطرافك! (تيل يتناول جرعة). ثم تأتي الأرواح وتغنِّي لك!.. تيل طيِّب، نيلِّلي طيِّبة، والأرواح كذلك.

(تتغير الإضاءة وتبدأ مسيرة الأرواح)

المسيرة

كتب غويا: «إذا نام العقل ظهرت الأشباح».

(تتدفع الأرواح والساحرات والأشباح إلى الخشبة في رقصةٍ مجنونة وكأنها هبطت من لوحة «كابريتشوس» تطوّق تيل ونيللي برقصها الشيطاني وتصمُّ آذانهما بأغنيتها).

أغنية الأرواح

نحـــــــن الأرواحُ ولا نفــــــــزعْ

إلاَّ لكـــــــــوارثَ لا نخـــــــــضعْ

كَـــــذَب النــــــاسُ إذا قـــــالوا

إنَّـــــا أشـــــرارٌ صــــــالوا

لا هَــــــمَّ لكـــــمْ إلاَّ الأكــــلُ

حيوانـــــاتٌ لــــولا الــــشكلُ!

أمَّـــــا نحـــــن فطهارتُنـــــا

تعـــــصمُنا مـــــن شـــــهوتِنا

وحيـــــــــاةُ بنـــــــــي البـــــــــشرِ

آثـــــامٌ ترمـــــــي فـــــــي صَـــــقَرِ

نحـــــــن الأرواحُ بـــــــلا عـــــددِ

نحيـــــا فـــــي الأرضِ إلــــى الأبـــــدِ

أرواحٌ نحـــــــــن بـــــــــلا هَـــــــمٍّ

ويمــــــوتُ النـــــاسُ مـــــن الغَـــــمِّ

نحن الأرواحْ، نحن الأرواحْ!

الأرواح: (يطوِّقون تيل ونيللي) بشرا! يوجد هنا بشرا!.. أهلاً وسهلاً يا ديدان الأرض! ألم تنتهوا من إحراق بعضكم بعدُ؟ ألا تزال هناك مادَّة للوقود؟ هه.. من يحتاج لفتىً أو فتاةٍ؟!

نيللي: إني خائفة يا تيل!

تيل : لا تخافي يا نيللي، فأنا إلى جانبك... سأسألهم سؤالاً!

الأرواح: اسأل ونحن نجيب...

تيل : أيها المنزَّهون عن الشهوات! إذا كنتم أسمى منّا فعلاً فأجيبوني: لماذا أعيش؟

الروح الأول: (يقفز نحو تيل ويمسك بذراعه) سؤالٌ سخيف يا بني، فالجواب موجود في السؤال نفسه. لماذا أعيش؟! ما الداعي للحياة فعلاً! إنك لم تُخْلَق برغبة منك، بل دفعتك الطبيعة ورأسك إلى الأمام. أما الآن فأنت شابٌّ راشد تستطيع أن تحدِّد ما تريد... لماذا تعيش في الوقت الذي تستطيع فيه وضع حد لحياتك فتنتهي كل الأسئلة والمشاكل؟! لا عذاب ولا ملل... لا شيء سوى الفراغ! قرِّرْ يا بني، قرر... فقد قال غوته: «إذا فقدتَ الرغبة في الحياة فَمُتْ وتجدَّدْ، لأنك لا تعدو أن تكون ضيفاً بائساً على هذه الأرض المظلمة...»

تيل : نعم، صحيح! مُتْ وتجدَّدْ! (يستلُّ سكِّينه)

نيللي: (ترتمي عليه) تيل.. وأنا؟.. وأطفالنا الذين لم يولدوا بعد؟ وأحفادنا الذين لم يولدوا بعد؟.. لا تصدِّقْه!.. يجب أن تعيش، يجب أن تعيش!

تيل : ولماذا؟

نيللي: كي تعيش!

الروح الثاني: (يقفز نحو تيل) الفتاة على حقٍّ تماماً. يجب أن تعيش كي تعيش... ها هنا مغزى الحياة! تأكل وتنام وتخلِّف... هذه هي الحياة! فلماذا تخجل من هذا الواقع؟ الغزال لا يخجل. والأسد لا يخجل، فهل الإنسان أغبى من هذه البهائم حتى يخجل؟ بناء البيت وتربية الأولاد والبحث عن الرزق والاستحمام في النهر... أليس كل هذا سعادة؟

تيل : سعادة!

الروح الثاني: وتَنَاوُلُ الحَسَاءِ الساخن، وشربُ البيرة المثلَّجة، والجلوسُ أمام المدفأة في ليالي الشتاء... ثم استذكار والدك وأنت تحرِّك الرماد بالمِلقط!..

تيل : انصرف من هنا!

(الروح الثاني يبتعد ضاحكاً)

الروح الثالث: (يمسك يد تيل) لمن تصغي أيها المجنون! من أين لك الراحةُ وكرامتُكَ مهدورة؟! مغزى الحياة ينحصر في الانتقام! الانتقام من الجميع، وباستمرار!...

يجب أن تردَّ على الركلة بصفعة، وعلى الضربة بعشرة أمثالها. لا يَغْسِلُ الدمَ إلاَّ الدم! أنت وحيد، والجميع ضدَّك فانتقم!

تيل : رمادُ والدي يدقٌّ في قلبي!

الروح الثالث: انتقم له! الخونة يحيطون بك من كل جانب! لكني أنصحك أن تبدأ بقتل أمك!

تيل : (يبتعد فزِعاً) ماذا؟

الروح الثالث: إنها خانت والدك: هو ميت وهي حية! (يبتعد ضاحكاً)

نيللي: (تصرخ) لنهرب من هنا يا تيل! اعطني ذراعك!

تيل : إنني أكره الجميع!

نيللي: وتكرهني أيضاً؟

تيل : نعم أكرهك!

(تحيط الأرواح بنيللي وهي تتصايح فرحاً)

الأرواح: أيتها الحبيبة! أيتها الفتاة الطيبة، تعالي معنا! (ينزعون عنها ملابسها) تعالي نلعب، نتسلَّ! من ترغبين في أن يكون الأوَّل منَّا؟ من؟ نحن شبَّانٌ مرحون!..

نيللي: تيل! لا تتركني! (تنتزع نفسها من بين الأرواح) إنني خائفة... كيف سأعيش بدونك يا حبيبي؟ إنني خائفة... لا أريد أن أبقى وحدي... أشفق عليَّ، أرجوك!

تيل : سامحيني. (يعانقها) لا أعرف بماذا يتلفَّظ لساني...

نيللي: (تمطره بالقُبَل) يا حبيبي! أشكرك يا سيدي... لا، لا، لا تخف، إني معك. إني قوية يا تيل، وسأقلع عينَيْ كلِّ من يمسُّك بسوء... اهدأ يا حبيبي. اصبر قليلاً وكلُّ شيء سيكون على ما يرام. عانقني بقوة... تستطيع البكاء إن أردت. لا تخجل، إني أفهمك. اجلس إلى جانبي... هكذا يا حبيبي... هكذا... ستهدأ الآن... لا تخف، ساعةُ ضعف وسرعان ما تمضي...

(تبتعد الأرواح بهدوء. تيل ونيللي مستلقيان في عناق. كاتالينا تقترب منهما)

كاتالينا: هل أنت سعيد يا تيل؟

تيل : نعم!

كاتالينا: (وقد تحوَّلت فجأةً إلى شرِّيرة) إذن، فقد هدأ خاطرك، أليس كذلك؟ شبعتَ أيها الضعيف؟ سكنتَ

على الصدر الدافئ وسال لعابُك... كُلُّكم متشابهون! يظنُّون أنفسهم أبطالاً، أمَّا في حقيقة الأمر فهم كالخنازير البِّريَّة! إنَّكَ لستَ روح فلاندريا، بل ضَرْطَتُها!.. إنِّي أبصق عليك، وعلى كلِّ آمالي... شكراً لك يا ربّ، لأنكَّ خلقتني مجنونةً. فحياتي هكذا أسهل على الأرض!

(تخرج كاتالينا بسرعة)

نيللي: لا تزعل منها يا تيل! إنها تستحقُّ الشفقة...

تيل : إنِّي أحسدها.

نيللي: كل شيء سيكون على ما يرام...

تيل : (بتأمُّل) للأسف، نعم. (يلمس الحجاب) لقد برد يا نيللي... برد تماماً...

* * *

الفصل الثَّاني

الـــوطـــن

الصَّمت

(مرَّ أربعون يوماً. منزل الفحَّام كلاس. الجميع يحضرون بمناسبة مرور أربعين يوماً على إعدام كلاس. سوتكين مشغولة بأمور البيت، نيللي تساعدها. تيل يُقَطِّع الملفوف ووجهه خالٍ من التعبير. كاتالينا تمشِّط شعرها أمام المرآة).

كاتالينا : هل تسمحين لي يا سوتكين أن أتزيَّن بطوقك الأحمر؟ الطوق الأحمر والشعر الأبيض شيء جميل جداً!

سوتكين: حرام يا كاتالينا! حرام أن تتبرَّج المرأة العجوز كما تفعل الصبيَّة...

- ٩٦ -

كاتالينا : اليوم عرسي. سيكون هانس في طقم أسود، وأنا في ثوب أبيض... وسوف نؤدِّي القسم أمام المذبح!

نيللي : ما هذا الذي تقولينه يا أمي؟ أيُّ مذبح؟! لا يوجد هنا أيُّ هانس...

كاتالينا : (تضحك) الغبيَّة... (لتيل) تيل، هل تقبل أن تكون بمثابة أبي أثناء حفلة الزفاف؟ (تيل لا يجيب).

نيللي : (لكاتالينا) اتركيه في حاله... (تقترب من تيل وتأخذ الملفوف المفروم ثم تقبِّله في وجنته) أحسنت! والآن عندنا ما يكفي من الطعام لجميع الضيوف...

(تيل لا يجيب).

سوتكين: يجب شراء بعض اللحم من السوق... (لتيل) هل تسمح لي يا ولدي أن آخذ قليلاً أيضاً من تلك النقود؟ (تيل لا يجيب) إنه الأربعون رغم كل شيء... ولا يليق أن تكون المائدة فقيرة... أشكرك يا بني... (تخرج النقود من المخبأ).

نيللي : يجب إخفاء النقود في مكان آخر يا سوتكين... ضعيها في المخبأ قرب البئر.

- ٩٧ -

سوتكين: لن يجدها أحد هنا أيضاً...

تيل : (بشرود) سأقبل، ولماذا لا أقبل!

سوتكين : عَمَّ تتحدَّث يا بنيّ؟

تيل : أقبل أن أكون بمثابة والدها في حفلة الزفاف...

(سوتكين تهزُّ رأسها وتتصرف. يظهر لامي وهو يحمل إوزَّة تحت إبطه)

لامي : (يلقي الإوزَّة على الطاولة) مرحباً! أنظروا بماذا جئتكم! إذا شويتْ وحُشيَتْ بالتفاح المسلوق تكون أكلة فاخرة! صحيح يا صديقي؟ (يربت على كتف تيل الذي يحافظ على صمته) هل تحبُّ لحم الإوَزِّ؟

نيللي : شكراً يا لامي.

لامي : عفواً! راقبت هذه الإوزَّة منذ زمان بعيد... تسبح السافلة في البركة وتصيح... فقلت في نفسي: صيحي، صيحي ما شئتِ! ستسبحين في المرق يوماً ما وبشكل أفضل... صحيح يا خالة كاتالينا؟ (يلاحظ ما تفعله كاتالينا) لماذا تتزيَّنين.

نيللي : (بسخرية) تريد أن تتزوَّج!

لامي : هكذا إذن؟! فعلاً، آن لها أن تتزوَّج... (يجلس بالقرب من تيل) اسمع يا تيل، هناك عمل يلوح في الأفق... سيقام في الأسبوع القادم معرض في أمستردام بمناسبة العيد، وطلبوا أن تحضر...

نيللي : ولماذا يحضر؟

لامي : هل تذكرين الأغنية التي غنَّاها عندنا في البازار؟

أنـــا ذا لامـــي الهُمَـــامْ   **كلُّ همِّـــي فـــي الطعـــامْ**

أغنية مضحكة جداً... طلبوها هناك ووعدوا أن يدفعوا أجراً سخيَّاً...

نيللي : سبق ودفعوا لنا بنفي تيل بسببها...

لامي : كيف يمكن مقارنة بلدتنا الصغيرة بأمستردام؟ هناك العاصمة، مدينة راقية! طبعاً يجب تعديل بعض الكلمات لتصبح الأغنية أقلَّ حدَّة... المزاح هنا ممكن... يسمحون عندهم بالمزاح. فما رأيك يا تيل (تيل لا يجيب) لقد وعدوا بدفع مئتي فلورين... مبلغ

جيد!.. ستكون هناك حفلة صاخبة يشترك فيها الغجر والدببة... وسمَّاكنا سيعزف على المندولين...

نيللي : مَنْ؟

لامي : السمَّاك. (يضحك) إنسان حقير طبعاً، لكنه تعلم العزف على المندولين بشكل لا بأس به!

نيللي : هل أنت بكامل عقلك؟ ما هذا الذي تقول؟ هل تريد أن يجتمع تيل مع السمَّاك؟

لامي : ومن قال هذا؟! كلٌّ شخص وحده... ثمَّ، الشغل هو الشغل، فماذا في ذلك؟ أنا شخصيَّاً رأيت في السيرك خنزيراً وذئباً يأكلان من طبق واحد...

تيل : تقول بالتفاح؟

لامي : مَنْ؟

تيل : الإوزَّة.

لامي : (فرِحاً) بالتفاح المسلوق... أمَّا الإوزَّة فمشويَّة (صمتٌ) ماذا نقول لأصحاب العرض في أمستردام؟ (تيل لا يجيب) صحيح. أنا أيضاً أردت إرسالهم إلى

الشيطان، لكني أردت مشاورتك أوَّلاً... نعم! (يضحك) ما رأيك أن نذهب لتناول قدح؟

نيللي : إلى أين وهو في هذه الحال؟ أنت ترى أنه غير طبيعي...

لامي : ولهذا أدعوه... لكي ينسى!..

كاتالينا: لامي إنسان طيب...

لامي : صدقتِ يا خالة... لكنَّ هذه الطيبة لا تجلب إلاَّ المشاكل... اقترب اليوم منِّي ولد وقال: ساعدنا يا عمُّ، والدي يتشاجر مع جارنا! تدخلت في الشجار طبعاً، ثم سألت الولد: من منهما والدك؟ فردَّ الصبيُّ: هذا هو سبب شجارهما...

تيل : (يقف بعزم) على شرط أن نتناول الكثير، حسناً؟

لامي : ماذا؟

تيل : الكثير من المشروب. حسناً؟

لامي : (فرحاً) طبعاً سنشرب الكثير، فالقليل يمكن شربه في البيت... هيَّا يا صديقي! (تيل ولامي يخرجان. يسمع صياح البوم. تقفز كاتالينا وتدور في الغرفة).

كاتالينا: إنه يطير قادماً إليّ... حبيبي هانس! آن وقت اللقاء...

نيللي : من تنتظرين؟

كاتالينا : لا أحد، لا أحد... اذهبي إلى غرفتك يا ابنتي وسوف أناديك فيما بعد.

(نيللي تريد الخروج إلى الشارع، لكن كاتالينا تمسكها من ذراعها) لا، لا... سيزعل هانس... اذهبي للنوم يا نيللي وسأوقظك بعد أن يتمَّ كلُّ شيء. (تدفع نيللي إلى الغرفة المجاورة بالإكراه تقريباً) لا تكوني سبباً في حزن أمك يا ابنتي! السعادة في هذا اليوم! اذهبي...

(نعيقُ البوم)

الزفاف

(يظهر السمَّاك مع شريكه وهو يلبس برنصاً أسود. وجهه ملطَّخ بالطحين وعيناه مكحَّلتان. في يده مندولين).

السمَّاك : ها قد وصلنا. (يتلفَّت) لن يرانا أحد.

الشريك : إني خائف يا إيوست.

السمَّاك : قلت لك: قل يا هانس! ادعُني بهذا الاسم، ولا ترتجف! نحن لسنا لصوصاً، بل شياطين!

الشريك : (يُصلِّب) لا تمزح هكذا! إنك ترتكب خطيئة!

السمَّاك : هذه الخطيئة مغفورة!.. أنا مستعد لأن أكون من شياطين الجحيم إن كنت أستطيع الانتصار على الشيطان نفسه بهذا الشكل...

(يُخرِج مرآة صغيرة ويكحِّل عينيه ويلصق أنفاً مستعاراً) هكذا! شكلي مرعب؟! نعم! يا للناس الأغبياء! إذا كنتَ تحمل سكيناً أو فأساً لا يخاف الناس منك، لكنْ يكفي أن تطيل أنفك قليلاً وتُجحِظَ عينيك وتكشِّر عن أسنانك حتى تزرع الرعب في قلوبهم!..

الشريك : وإذا دخل أحدهم إلى هنا فجأة؟

السمَّاك : لا تَخَفْ... إنها وعدت أن تكون وحدها... يحتمل أن تكون هناك نيللي أيضاً. هل تشتهي فتاة صبية؟ إنك تشتهي، هذا واضح من عينيك... كن شجاعاً إذن. فهمت الآن كل شيء: الخوف أسوأ نقيصة في

الإنسان. لقد عشت حياتي كلّها وأنا أشفق على الناس، وها أنذا ملعون منبوذ! لكنهم سيتذكرونني مدة طويلة من الزمن. كفانا دفاعاً، حان وقت الهجوم!

(يغنِّي)

أغنية الفارس الأسود

فـــارسٌ أســـودُ باســـمِ هـــانسْ

يغنِّيـــــكِ هـــــذا الرومـــــانسْ

غنـــاء عـــشيقٍ هنـــا يـــستغيثُ

وإن كـــان دومـــاً قـــويَّ المـــراسْ

أُناجيـــكِ، أرجـــوكِ يـــا كاتـــالينْ

بقيثـــــارةٍ لا تمـــــلُّ الأنـــــينْ

اخرجـــي للقـــاءِ المتـــيَّمِ فيـــكِ

لعـــلَّ فـــؤادَكِ يومـــاً يلـــينْ

سأكـــشف ســـرَّ الـــشبابِ لـــديكِ

وفـــي غابـــةٍ نختفـــي كـــالعرينْ

ونُطلـــــــقُ رغباتِنـــــا كــــــالطيور

فـــإنّي ابـــنُ حـــظٍّ عظـــيمٍ متـــينْ

هَلُمِّــــي لنقلــــبَ هـــذا الـــشقاءَ

نعيمـــــاً يؤرجُحنـــــا عاشـــــقيَنْ.

(تظهر كاتالينا في ثوبِ الزفاف الأبيض)

كاتالينا : أنا هنا، يا حبيبي هانس!

السمَّاك : يا للجمال الساحر! لتختفِ النجوم من السماء إلى الأبد، وليُغَطِّ القمر وجهَه الشاحب القبيح بستارٍ من الغيوم، لأنَّ كاتالينا هنا وعَيْبٌ على بقيَّة الكواكب أن تظهر إلى جانبها!...

كاتالينا : كم أنت جميل يا هانس! ما أعذب كلماتك! لا بد أن ملاكاً علَّمك الحديث بهذه الطريقة...

السمَّاك : نعم ملاك، ولكن ليس من ملائكة السموات، بل من ملائكة ما تحت الأرض. اسمه الشيطان... ملاك أيضاً، لكنَّ لونه أسود... لعن النهار وابتدع الليل.

لوَّن الجَّو باللون الأسود لكي يخفي الجريمة والحب عن العيون... (يمدُّ لها يديه) الليلةُ ليلتُنا يا صغيرتي... واليوم سيتوحَّد قدرانا...

كاتالينا: كم أنا سعيدة يا حبيبي... قل لي فقط إنك تحبُّني.

السمَّاك: أحبُّك.

كاتالينا : لا تستعجل بالجواب... أنظر إليَّ، إنّي عجوز.

السمَّاك: هراء! إنكِ أكثر نساء العالم شباباً!

كاتالينا : (وقد رأتِ الشريك) من معك يا هانس؟

السمَّاك: الشخص الذي سيعقد قراننا... ناوليني يدك يا زوجتي العزيزة...

(يركع مع كاتالينا على ركبتيه أمام الشريك) أبتي المحترم، وحِّدْنا وباركْ حبَّنا في الحياة وبعد الممات!

الشريك: (يبسط يديه عليهما) هانس، يا عبد الله، هل تتزوَّج كاتالينا بقلبٍ نقيٍّ وطاهر؟

السمَّاك: نعم يا أبتي.

الشريك: كاتالينا يا أَمَةَ اللهِ، هل تقبلين الزواج بهانس؟

كاتالينا : نعم يا أبتي.

الشريك: هل أنتما مستعدَّان لتقديم فِدْيَةٍ للشيطان مقابل زواجكما؟

السمَّاك: نعم! كلُّ ما أملك هو له! (يعطيه ما في جيبه من النقود).

الشريك: (لكاتالينا) وأنت يا ابنتي؟

كاتالينا : أنا لا أملك شيئاً.

السمَّاك : (يعانقها) اعطيه كل شيء يا كاتالينا اعطيه...

كاتالينا : حقاً لا أملك شيئاً يا حبيبي...

السمَّاك : وفي البيت؟

كاتالينا : ليس في البيت إلاَّ نقود كلاس التي خبَّأها... لكنَّ لَمْسَها ممنوع...

السمَّاك : (ينهض) وداعاً. (للشريك) اعذرني يا أبتي المبَّجل! اعذرني وسامحني لأني ورَّطتُك في قضيَّةٍ مخجلة... ظننت أنني سأتزوج نفساً محِبَّة، ولكنِ اتضح أنها حيَّةٌ رقطاء...

كاتالينا : لا تذهب يا حبيبي...

السمَّاك: ابتعدي عني أيتها الشمطاء المخادعة. سِرُّ الغريب أعزُّ عليك من القريب إذن! لقد ارتكب كلاس ذنباً كبيراً عندما خبَّأ الميراث، وابنه يضاعف هذا الذنب، أما أنت فتساعدين في استمرار الخطيئة... الوداع!

كاتالينا: حبيبي هانس... لا تترك عروسك يا حبيبي...

السمَّاك: انظري في المرآة أيتها العجوز... مرِّي بيدك على جلدك المتهدِّل، مرِّي بيدك على ما تبقَّى من شعر رأسك... القوة الشيطانية هي القادرة فقط على إعادة شبابك إليك في طرفة عين، وأنت لا تريدين دفع الثمن؟!

كاتالينا: إني خائفة... تيل سيقتلني!.. كلاس مات ولم يقل أين النقود... لست أدري أين خبَّأها...

السمَّاك: (يعانقها) ابحثي يا حبيبتي... حبُّكِ سيدلُّك... لقد أعدَّ الشيطان لك هذا الامتحان ويجب أن تنجحي فيه... هيَّا، هيَّا!

كاتالينا: (مستسلمة) ستسمع نيللي!

السمَّاك: (للشريك) اذهب واشغل الفتاة!

كاتالينا: (برعب) لا!

السمَّاك: لا تخافي، لا تخافي... إنه سيلهيها فقط!

(يتسلَّل الشريك إلى المنزل)

لندخل نحن أيضاً... (يدخلان) ابحثي، ابحثي يا عصفورتي... إنها مخبَّأة هنا في مكان ما... وبينما تبحثين سأُسمِعُك بعضاً من أشعار الحب...

«ما من نارٍ في الدنيا أقوى، أو أسطعُ

من نارٍ تشعلها في قلبي طلعتك...»

ابحثي هنا يا حبيبتي، ألا يمكن أن تكون مخبَّأةً في الجدار؟ أو خلف البرميل؟

«كم يسعدني أن أغرقَ في عينيك الساحرتينْ،

في ألقِ العينينِ

وأعماقٍ دونَ قرارْ...»

ألم يلمع شيء ما في الزاوية؟ أهي النقود؟ تذكري يا عصفورتي أين خبَّأوها...

«سأظلُّ أردِّد في ساعات نعيمي

وأردِّد مع سكرات الموتْ

اسم غرامي كاتالينا!»

(يُسْمَع عراكٌ وصراخ خلف الجدار)

لا ترتجفي يا حبيبتي... كل شيء على ما يرام...
حبيبك هانس إلى جانبك!..
«لحبيبةِ قلبي، آهاتي،
أنفاسي وكياني كلُّه...»

كاتالينا: (تخرج النقود من المخبأ) ها هي! خذها يا حبيبي! (تسقط مغميّاً عليها) (يندفع الشريك والجروح تغطّي وجهه).

الشريك: (يتنفَّس بصعوبة) القحبة شهرت عليَّ سكِّيناً!

السمَّاك : (ينحني فوق كاتالينا) سامحيني يا حمامتي! سامحيني! (يلقي نظرة حاقدة على البيت) عائلة محترمة! كم تحمَّلتْ من الأذى بسبب فاعلي الخير هؤلاء!

الشريك: لنهرب من هنا بسرعة... ثمة قادم!.. ابصق على هذه العجوز ولنهرب من هنا!

السمَّاك: اخرس أيها الحقير!.. إنني أودِّع زوجتي... (يقبِّل كاتالينا ثم يهرب مع شريكه). (تدخل نيللي راكضة وثوبُها ممزَّق. تنحني فوق كاتالينا، يُسْمَع صياحٌ خلف الجدار «أَفِقْ... أمسِكْها» يندفع تيل ولامي وهما يلهثان)

أغنية الغضب

كاتالينا: (تعود إلى وعيها) هانس، حبيبي! أين أنت؟

تيل : (غاضباً) من كان هنا؟ أجيبي...

نيللي : لا أعرف.

تيل : لا تعرفين؟

نيللي : لا أعرف... شخصان في ملابسَ سودٍ .. اندفع أحدهما إلى غرفة نومي...

تيل : لا تعرفين (يصفعها) استري صدرك يا زوجة المستقبل!

كاتالينا: لا تضربها! أنا أعطيت النقود لهانس!

(تيل يندفع نحو المخبأ)

هانس دفعها فدية للشيطان حتى أعود شابَّة...

تيل : (يائساً) لقد نهبونا يا والدي! (يخطو نحو كاتالينا فيوقفه لامي)

لامي : لا تستعجل. لنفهم أوَّلاً ما حدث!

تيل : احترق والدي ولم يعترف... عذَّبوا والدتي ولم تعترف! وها هي هذه العاهرة العجوز مع ابنتها...

نيللي : (تصفع تيل) هيَّا يا تيل.. اصرخ، واضرب وقاتل النساء، هذا أمر تجيده!..

لامي : إهدأ يا صديقي.... وتعال نتفاهم!

تيل : إخرس أنت! همُّك التهامُ الإوزّ ونفخُ هذا الكرش. أين هي زوجتك؟ ألم تعد تشتاق إليها؟ هَدَأَ بالك؟ ولِمَ لا!.. يبدو أنها تزوَّجت بفرقة من الفرسان الإسبان. قل لها أن تأخذ نيللي أيضاً لتساعدها وتسلِّيها!..

لامي : إذن هكذا أصبحت يا تيل؟

تيل : لم أُصبِح، بل جعلوني هكذا! أربعون يوماً وأنا أحمل على ظهري هذا البيت كالحلزونة... أربعون يوماً والكلمات تنهال على رأسي كالحجارة... ها نحن نُحَضِّر لذكرى الأربعين. خبزنا الكثير من الفطائر... زورونا أيها الناس الطيبون، ولنأكل ونشرب ونترحَّم على روح الفحَّام! أمَّا ابنه فسيغنِّي ويهرِّج لكم ليضحككم. إنه الآن ربُّ البيت. يتكوَّر كالدبِّ في مغارته لقضاء فصل الشتاء! ورغم ذلك لم يُفِدْهُ هذا في شيء، فها هم الكلاب قد تتبعوا أثره

ووجدوه!.. ها هو البيت فارغ! أشكرك يا كاتالينا على صرفك النقود... لقد أعطيتِني درساً! إنني أستحق ما حصل!.. إذا كنتَ شاةً فلا يحقُّ لكَ الاحتجاج حين يجزُّون صوفك... لكنِّي لن أنتظر حتى أبدأ بالثغاء كالغنم. عندي ما يكفي بعد من القوَّة كي أُمسِكَ العالم من خناقه وأهزَّه حتَّى يهون التنفُّس... رماد كلاس ينبض في قلبي من جديد! إنه حارٌّ يكوي الجلد!.. إن عصرنا حارٌّ كرماد والدي!.. لن يهدأ لي بال ما بقيت نيران محاكم التفتيش مشتعلة، ولن أعرف السعادة حتى ينمو على كل غصن من أغصان أشجار التفاح في البساتين رأس جندي إسباني.. إلى الأمام يا لامي!.. إنهم بانتظارنا..

لامي : هيَّا يا صديقي!

تيل : وداعاً يا نيللي! اذكريني بالخير!.. لقد خلقني الله رجلاً لا زوجاً، وتنُّورةُ المرأة لم تُخْلَقْ كي يختبئ الرجال تحتها!..

لامي : صحيح يا تيل! عيب على الرجال أن يحاربوا النساء...

تيل : (بأسى) أيها الأبله! الأمر مع النساء أصعب بكثير من محاربة الإسبان.

(يغنِّي أغنية الغضب):

يا لهذا البلدِ المعطاءِ! فيهِ
كلُّ ما طابَ طعامٌ وشرابُ
فَكُلُوا واشدوا وعيشوا
والْعنوا الشيطانَ ولتحيا
بلادي فلاندريا!
فعلى أشجارِنا الشَّماءِ
مثلَ السنديانْ
ثمراتٌ يانعهْ
بلساناتٍ طويلهْ
تغتذي الغربانُ بالمجَّانِ من خيراتِها...
تمرح النيرانُ في الأهْلِينَ
لا تخشى غلاءَ الخشبِ
تحرقُ الأيتامَ والثكلى
بديلَ الحطبِ
نَتَدَفَّا ونرشُّ الجوَّ بالمقبولِ

من تلك الروائحْ

وبوسعِ المرءِ أن يكسبَ أموالاً

وبالقانونِ، إمَّا باع أُمَّهْ.

لا تَخَفْ بعدَئذٍ محكمةَ الربِّ

وجِئْ بالمَلِكِ الظالمِ واهتفْ:

هُوَ يا ربُّ الذي حوَّلني كلباً،

هُوَ المذنبُ،

ليس الذنبُ ذنبي!

ولْتَعِشْ هذي البلادُ:

فلاندريا!

الغوزيُّون

على ألحان نشيدٍ عسكريٍّ صاخب يسير الغوزيُّون. لصوصُ الغاباتٍ، جيشُ الأمير. ينضمُّ إليهم تيل ولامي. تيل يحمل مكنســـة بدلاً مـــن الســـيف. القائد يقود الفصيلة تحت إشراف الضابط الألماني المرتزق ريزنكرافت الذي لا يجيد اللغة المحلية.

القائد : الجميع، استا - ا - ا - عِدْ! (يقترب من ريزنكرافت) سيد ريزنكرافت، فصيلة الغوزيين مستعدة للتدريب.

ريزنكرافت: (يتفحَّص الغوزيين بازدراء، ويتكلم بلُكنةٍ قويَّة) هـــذا ليـــس جيشاً... هـــذا جُماع غجر! (يستعرض الغوزيِّين) شفاخ! زير شفاخ! (تعني بالألمانية: سيِّئ، سيِّئ جداً، ثم يتوقَّف عند لامي) هذا من يكون؟

القائد : مستجدٌّ يا سيِّد ريزنكرافت. وصل هذا الصباح!

ريزنكرافت: (للامي) أو، ماين غوت (يا إلهي - بالألمانية) يا لها من كرش!.. في الحرب كرش كهذه ممنوعة!

لامي : عفوك سيدي الضابط، إنه كان معي من أيام السلم!

ريزنكرافت : اخرس. انبطاح.

لامي : لماذا؟

ريزنكرافت: انبطاح! (لامي ينبطح) قيام! آوفتشين!

لامي : لكنك أمرتني بالانبطاح!

ريزنكرافت: قيام! (لامي ينهض) انبطاح! (لامي ينبطح) قيام!

لامي : (لاهثاً) لا، زوَّدتها، يا سيِّدي الضابط! اخترْ واحدة من اثنتين، إما انبطاح وإما قيام...

ريزنكرافت: اخرس يا جحش! (للجميع) خنازير! فلامنكيُّون وسخون نتنون!

تيل : على مهلك يا سيادة الضابط، وإلا فاحت رائحتك أيضاً!

ريزنكرافت: ماذا؟ (يشير إلى المكنسة) ما هذا يكون؟

تيل : سيفي!

ريزنكرافت: هذا سيف؟! أنت تكون تسخر؟! (يستلُّ سيفه) إذن دافع عن نفسك!.. سأعمل لك ثقب!

تيل : (يتراجع) لا داعي لهذا يا سيادة الضابط... عندي ما يكفي من الثقوب في جسدي! (ريزنكرافت) يهاجم تيل بالسيف، وهذا يدافع عن نفسه بالمكنسة).

لامي: ما هذا أيها الأخوة؟ إنه سيقتله!..

(يندفع نحو المتبارزَيْن فيوقفه الغوزيُّون)

القائد : لا تحشر أنفك! الحقٌّ على صاحبك...

لامي : أخاف على حياة الضابط!

(تيل يوقع ريزنكرافت على الأرض ويضع المكنسة أمام أنفه).

تيل : ما رأيك بأن تأكل مكنسة طازجة يا سيد ريزنكرافت؟

(يظهر الأمير الأوراني)

الأوراني : كفى! ماذا يحدث هنا؟

تيل : (يترك ريزنكرافت) عفوك يا سموَّ الأمير. عندنا تدريب تكتيكي...

ريزينكرافت: (ينهض) أنا يرفض تدريب هذا العصابة!

الأوراني : لكننا ندفع لك نقوداً مقابل هذا العمل يا ريزنكرافت!

ريزنكرافت : أنا يرفض نقود... أنا لا يستطيع قيادة قطيع. أنا ليس راعي، أنا ضابط ألماني! (ينصرف)

الأوراني: (لتيل) ما اسمك؟

تيل : تيل أويلين شبيغل يا صاحب السموَّ!

الأوراني: مهرِّج؟

تيل : نعم يا سيِّدي!..

الأوراني: تعلم أين تهرِّج! لقد ارتكبت جريمة كبرى وسوف تعاقَب طبقاً للقوانين الحربية (للقائد) اعدموه رمياً بالرصاص!

تيل : هو الذي بدأ يا صاحب السموِّ... قال عنَّا «فلامنكيُّون نتنون...»

الأوراني: (لتيل) كان عليك أن تصمت وتصبر!

تيل : طبعاً يا صاحب السموّ ولكنْ خطر ببالي، أَلاَ يُحْتَمَل أنَّه يقصدك أنت؟!

الأوراني: المجموعة... نارّ!

(يضغط الجنود على الزناد، لكن البنادق لا تطلق).

ماذا حصل؟

القائد : لقد نفد الرصاص... نفدت الذخيرة يوم أمس، أثناء المعركة...

الأوراني: خذوا من المستودع!

القائد : المستودع مقفل.

الأورانـي: أين أمين المستودع؟

القائد : استُشهِد يا صاحب السموّ!

الأورانـي: عينوا واحداً غيره.

القائد : عيَّنَّا غيره!

الأورانـي: وأين هو؟

القائد : ذهب لدفن السابق!

الأورانـي: ليحضر حالاً.

القائد : لا يمكن أن يحضر نفسه، ولكن يمكن إحضاره محمولاً يا صاحب السموّ، لأنه سكِر بعد الجنازة!

الأورانـي: (يصرخ بشدَّة) حطِّموا باب المستودع!

القائد : أمرك سيِّدي! (للغوزيِّين) المجموعة، إلى اليمين دُرْ، إلى الأمام سِرْ. (ينصرفون ويبقى تيل).

الأورانـي: يا للعار! هذا ليس جيشاً، بل حُفنةٌ من الفلاَّحين الأغبياء! عند عدوِّنا جيش نظامي مدَّرب وجيَّد التسليح. أمَّا عندنا فبارودة لكلِّ ثلاثة، وحتّى البارودة بدون بارود!.. إنني مضطر لاستخدام المرتزقة الذين

أدفع لهم ذهباً، وأنتم بدلاً من أن تتعلَّموا منهم فنون الحرب تضربونهم بالمكانس على وجوههم! يا للعار!

تيل : أنا مستعد للاعتذار له.

الأوراني: اخرس. سيعدمونك بعد خمس دقائق.

تيل : إذن لن أخرس. عندي خبر مهمٌّ يا صاحب السموّ. الإسبان سيبدأون هجومهم يوم الأربعاء القادم.

الأوراني: ومن أين عرفت هذا؟

تيل : أمضيت أسبوعين في طريقي إليكم ومررت بمناطق يحتلُّها الأعداء... الملك فيليب يزحف إلى هذا المكان على رأس جيش كبير. أما الذخيرة والمؤن فقد تخلَّفت عن الجيش بسبب وعورة الطريق... والملك سيبدأ الهجوم يوم الأربعاء كي ينسى الجنودُ جوعهم.

الأوراني: ولماذا يوم الأربعاء بالذات؟

تيل : لأنهم يدفعون رواتب الضبَّاط يوم الخميس. وبما أن فيليب بخيل جداً فسيزجُّ بهم في المعركة يوم الأربعاء كي يوفر لنفسه رواتب القتلى منهم.

الأوراني: لِمَ لا يهاجم إذن يوم الاثنين أو الثلاثاء؟

تيل : الإسبان قوم متديِّنون يا صاحب السموّ. إنهم يكرهون الحرب في الأعياد. يوم الاثنين عيد القدِّيس أنطوني، والثلاثاء عيد القديس مارك، والخميس عيد القديس لوقا!.. ولا يبقى إلاَّ يوم الأربعاء.

الأوراني : معقول!.. وكم من الجنود تقريباً يقود فيليب؟

تيل : ستْة آلاف ومئتين وستة وأربعين نفراً يا صاحب السمو!

الأوراني: وهل عددتهم؟

تيل : كلاَّ يا سيدي، بل حسبتهم... برفقة الجيش الإسباني عدَّة بيوت للدعارة. عددت الفتيات وضربت عددهن بعدد المَّرات لكل جندي إسباني، ثم أجريت تعديلاً بسيطاً حيث أخذت بالحسبان حرارة الجندي الإسباني وتوصلت إلى الرقم المنشود!

الأوراني: أحسنت!.. وهل تعرف عدد المدافع؟

تيل : طبعاً أعرف. ثلاثة وثلاثون مدفعاً، كان بينها خمسةٌ معطلَّة أصلحتها بنفسي.

الأوراني: لماذا؟

تيل : بعد إصلاحها ستطلق في الجهة المعاكسة!..

الأوراني: أحسنت!.. إنك مقاتل ممتاز يا تيل... لكنك جنديٌّ سيِّئ خالفت النظام ولا بدَّ من عقابك، للأسف...

تيل : أنا مستعدٌّ للموت يا صاحب السمو، خاصَّة وأن الإسبان أعلنوا أنهم يدفعون مقابل رأسي مائتين من الفلورينات. تستطيع أن تأخذها وتدفع منها راتب ريزنكرافت!..

الأوراني: أيها الوقح! إنك تتمادى وتنسى نفسك!.. (وقد هدأ) لقد فهمت كل شيء يا أولين شبيغل... إنك إنسان خطير تحمل معك الفوضى والتخريب أينما حللت، لهذا فالأفضل أن يكون مكانك في جيش الأعداء!

(يظهر الغوزيُّون مع القائد)

القائد : البواريد جاهزة يا سيِّدي.

الأوراني: ممتاز. أيها الجنود.. أولين شبيغل خالف النظام ويستحق العقاب، لكنه اجترح أيضاً مأثرة يستحقٌّ المكافأة عليها. وبعد المقارنة والتفكير قرَّرت تعيينه حاكماً عسكرياً لمدينة بريل!

تيل : لكنَّها الآن تحت الاحتلال الإسباني يا صاحب السمو؟!

الأوراني: هذا لا يهمُّني... اذهب وابدأ بممارسة مهامِّ منصبك!

تيل : في المؤخِّرة من جديد؟ لا. لماذا أمضيت أسبوعين في السير حتى وصلت إليكم؟ لكي أعود فوراً إلى المكان الذي جئت منه؟ لن أذهب.

الأوراني: تمرُّدٌ جديد؟! أيُّها الجنود! اتِّخذوا وضعية إطلاق النار، استعدّ!

تيل : حسناً، موافق.

الأوراني: سبطنات البواريد إلى أعلى... أعلى أكثر!.. تحيَّة على شرف الحاكم العسكري الجديد لمدينة بريل... نار!..

(الغوزيُّون يطلقون النار في الهواء ثم يغنُّون نشيدهم).

نشــيد الغــوزيِّين

يمشي الغوزيُّون يشيِّعُهم

جَمْعُ نسائِهِمُ

الحرِّيَّةُ مخطوبتُهُمْ

وهنا الغيرةُ تنعدِمُ

★ ★ ★

يمشي الغوزيُّون فلا

يرشقُهمْ أَحَدٌ بالوردِ

ولكنْ بالتهديدِ وبالنارِ

يرشُّونَهُمُ.

خانتنا فورتونا

ربَّةُ حظِّ الناسِ ولكنْ،

حتَّى للموتِ

نسيرُ ونبتسمُ.

★ ★ ★

يمشي الغوزيُّون وبينَهُمُ

ثمِلونَ وصاحونَ، لذا

ننصحُ ألاَّ يدنو مِنَّا

عرَّافاتٌ أو عرَّافونْ.

ها قَرْعُ طبولٍ إيذاناً

بالحربِ

وإنَّا فيها المنتصرونْ.

* * *

يمشي الغوزيُّونَ ولا

يلتفتونَ إلى التهديدْ

البسمةُ تملأُ أوجهَهُمْ

رغمَ الأعداءْ

فالحرِّيَّةُ مخطوبتُهُمْ وهُمُ

من أجلِ الحريةِ

لا يخشونَ الموتَ

يموتونَ فِداءْ.

قلعة الجنرال

مدينة بريل. حصن قائد حرس السواحل الجنرال دون لوميز. في القاعة زوجة الجنرال واسمها آنا... سمراء متوسِّطة الجمال. يدخل الجنرال مسرعاً وهو منفعِل جدًّاً.. يرتدي رداءً منزليًّاً وعلى رأسه قبَّعة النوم.

آنا : ماذا حدث يا جنرال؟

الجنرال: الملك! صاحب الجلالة... اللعنة... أين بِزَّتي العسكرية؟

آنا : أعطيتها للخدم كي ينظفُّوها!

الجنرال: ليُحضروها فوراً! الملك! صاحب الجلالة يتفقَّد خليج بريل بنفسه! إنَّه في طريقه الآن إلينا يا إلهي، أين السَّيف؟ (ينظر من النَّافذة). إنَّه يقترب... وأنا في هذه الثِّياب يا آنَّا! ماذا سيحصل؟.. السِّفْلَةُ، لم يُخطِرْني أحد بهذه الزيارة المفاجئة...

آنا : اهدأ قليلاً. سأرسل أحد الخدم حالاً... (تخرج)

(يفتح الباب ويدخل فيليب على عجل والغضب بادٍ على وجهه).

الجنرال: أهلاً بكم يا صاحب الجلالة... (ينحني احتراماً)

فيليب : من أنت؟

الجنرال: قائد حرس السواحل الجنرال دون لوميز.

فيليب : جنرال؟! ظننت أنك البوَّاب أو الطبَّاخ!

الجنرال: يا صاحب الجلالة، لم يُخطِروني بقدومكم... ولم أكن مستعدًّاً...

فيليب : وهل تتوقَّع أن يُخطِرَك الغوزيُّون بالهجوم مسبقاً؟ يا للعار! الحرب في أَوجها.. نحارب ضدَّ جيشٍ سلَّحوه جيَّداً، والقائد العسكريّ عندنا أخذ غفوةً بعد الغداء!..

(يظهر الخادم وهو يحمل البزَّة)

البس بسرعة واخفِ هذا المنظر المعيب عن العيون!..

(يرتدي الجنرال بزَّته العسكريَّة المغطَّاة بالأوسمة والميداليَّات) هناك كثير من الحديد على صدرك يا جنرال. ستضطرُّ لخلع نصف أوسمتك كي يصبح

الوقوف في حضرة الملك أخفَّ وطأةً عليك!.. يا لك من حمارٍ عجوز! أين حرس السواحل؟! قطعتُ الخليج كلَّه سيراً على الأقدام ولم أرَ مدفعاً أو رشَّاشاً!.. حتَّى ولا دشمة واحدة!

الجنرال: هذا يُسعدني يا صاحب الجلالة.

فيليب : ماذا تقول؟

الجنرال: هذا يسعدني يا صاحب الجلالة، لأنه إذا كانت نظرتكم الثاقبة لم تلاحظ أسلحتنا الساحلية فهذا يعني أنها مموَّهة جيِّداً.. ليتفضَّل جلالة الملك ويُلقِ نظرة على هذه الخريطة... (يبسط الخريطة) هذا هو المخطَّط السرِّيُّ لدفاعنا الساحلي... إنه يغطِّي كلَّ شبر من الخليج.. حتى هنا نصبنا المدافع فوق كل جزيرة وموَّهناها جيِّداً... وإذا أرسل الأوراني جواسيسه وعيونه إلينا فلن يروا سوى الأحجار والرمال...

فيليب : (بهدوء) هذا شيء يبدِّل النظرة فعلاً...

الجنرال: لقد أمضينا عاماً كاملاً في بناء هذه المخابئ والاستحاكمات يا صاحب الجلالة. حوّلنا الخليج إلى فخٍّ حقيقيّ. وإذا ما تجرَّأت سفن الغوزيِّين واقتربت من بريل فإننا سنستدرجهم إلى الاقتراب من الساحل أكثر وبعدئذ نفتح النار عليهم من كل الجهات!

فيليب : خطَّة لا بأس بها!.. رغم ذلك يجب أن تفهم سبب غضبي يا جنرال. فعندما يتفقَّد الملك المواقع العسكرية يكون واجب المسؤول أن يستقبله كما يليق!

الجنرال: أنتم على حق يا صاحب الجلالة!.. لكني إذا كنت قد أحسنت تمويه مدافعي فجلالتكم كنتم أكثر براعة في إخفاء أمر الجولة التفقدية!..

فيليب : حسناً. سنعتبر أننا قد تبادلنا المجاملات... والآن أطلبْ لنا قليلاً من النبيذ!.. أُحِسُّ بالتعب.

الجنرال: أمرك يا صاحب الجلالة.

(يصفق فيدخل الخدم وهم يحملون الصواني تتبعهم آنَّا في بزَّة عسكريَّة أنيقة وقد تقلَّدت سيفاً، وعلى صدرها وسام الصليب).

فيليب : يا إلهي!.. يا لها من فاتنة!.. (للجنرال) ابنتك؟

الجنرال: زوجتي يا صاحب الجلالة!

فيليب : شيء مؤسف! ومع ذلك فإنها سمراء رائعة!

(يشير إلى الصليب على صدرها) هل هذا للزينة؟

آنا : إنه وسام عسكري يا صاحب الجلالة!

الجنرال: استحقَّتْه عن جدارة... منذ شهرين هاجم الغوزيون عربتنا فأطلقت آنَّا النار على اثنين منهم وأردتهما قتيلين!

فيليب : برافو. أهنِّئك يا سيِّدتي (يضع يده على الصليب فوق صدرها). أحمليه وافخري به لأنك تستحقينه... النساء اللواتي يخدمن الملك يعتبرن جنوداً أيضاً.

آنا : نعم يا صاحب الجلالة!

فيليب : (ويده لا تزال على صدرها) أتمنَّى لك مآثر جديدة! ولتلمع الأوسمة الجديدة على صدرك هنا، وهنا!.. (للجنرال) ابنتك فاتنة يا جنرال!

الجنرال: زوجتي يا صاحب الجلالة!

فيليب : (يُنزِل يده مكْرَهاً) أعرف... قدحاً من النبيذ (الخدم يملؤون الكؤوس) بصحَّتك يا سيِّدتي، بصحَّة المملكة! (يشربون ثم يظهر جنديٌّ يقترب من الجنرال ويهمس في أذنه)

الجنرال: (للجندي) فيما بعد، فيما بعد!

فيليب : ماذا حصل.

الجنرال: أمسكوا بهارب من جيش الغوزيين يا صاحب الجلالة.

فيليب : يجب استجوابه فوراً! باشر عملك يا جنرال.

الجنرال: وكيف أتخلَّى عن صحبة شخصكم العظيم...

فيليب : (مقاطِعاً) العمل أهمُّ. اذهب أنت، أمَّا أنا فسأثرثر مع ابنتك الفاتنة.

الجنرال: زوجتي يا...

فيليب : حسناً، حسناً، لن نجادل... اذهب!

(الجنرال يخرج فيقرِّب فيليب المقعد الثاني من مقعده) اجلسي!

آنا : لي الشرف أن أقف في حضرة مليكي صاحب الجلالة!

فيليب : كُفِّي... وإلاَّ صدَّقتُ أنك جنديٌّ فعلاً... اجلسي!
(يُجلِسها ثم يضع يده على كتفها) يا إلهي، ماذا تفعل هذه الحرب بنا! حتى الصبايا الجميلات يجب أن يضحِّين بأنفسهن ويجترحنَ مآثر عسكرية...

آنا : تلك الحادثة لم تكن من البطولات الخارقة يا صاحب الجلالة.

فيليب: أنا لا أقصد تلك الحادثة... أنا أقصد زواجك! الزواج من هذا العجوز الرُّمَّة هو مأثرة بحدِّ ذاته! لا بدَّ أنَّ يديه ترتجفان... (يعانقها)

آنا : (تتملَّص) لا داعي، يا صاحب الجلالة!

فيليب: لا داعي!.. لمسة بسيطة، وفوراً لا داعي!.. (يعاود معانقتها) ممَّ تخافين أيَّتها البلهاء؟ إنك شجاعة... حدِّثيني كيف أجهزتِ على اثنين من قطَّاع الطرق؟

آنا : لم يكن عندي مخرج آخر يا صاحب الجلالة فقد حاولا عناقي!

فيليب: (يبتعد عنها) إنَّك وقحة... كيف ترفضين ملاطفة الملك نفسه؟!

آنا : عفَوك يا صاحب الجلالة، إني خادمتك المطيعة التي تحبُّ مليكها...

فيليب: ما المانع إذن؟

آنا : أحبُّ الملكة ماريا أيضاً!

فيليب: (غاضباً) تلك القميئة! أكرهها!.. إنها باردة كضفدعة! (شاكياً) أنا تعيس في حياتي الزوجية يا آنَّا... لا أُحِسُّ بأيٍّ ميل نحوها... اشفقي عليَّ يا روحي... إنني آمرك! (يعانقها من جديد) تنفيذ رغبة الملك واجب عليك! أنت جندي! انتبه! استعد

(يدخل الجنرال مسرعاً)

الجنرال: يا صاحب الجلالة!

فيليب : (غاضباً) لماذا شرَّفتنا؟

الجنرال: كشف لنا الهارب عن معلومات هامَّة جدًّا، وأنا ظننت...

فيليب : (مقاطعاً) ظنُّك في غير وقته أيها الجنرال! (وقد هدأ) حسناً... أحضروه... (يجلس... الجنودُ يحضِرون السمَّاك)

السمَّاك: (ينحني للملك) يا صاحب السمو...

الجنرال : (مصِّححاً) صاحب الجلالة... إنك في حضرة ملك إسبانيا.

السمَّاك : (يخرُّ راكعاً) عفوك يا صاحب الجلالة... لم أكن أعرف. لقد رأيت صورتكم مضروبة على النقود فقط... وصورة جانبية فقط...

فيليب : من أنت؟

السمَّاك : تاجر سمك... اسمي إيوست غريبستونر من مدينة دامه.

فيليب : فلامنكي؟

السمَّاك : للأسف نعم، يا صاحب الجلالة.

فيليب : لا يليق بالإنسان أن يخجل من جنسيته...

السمَّاك : إن أبناء جلدتي أوغلوا في الهرطقة وتورَّطوا في حروب يقتل فيها الأخ أخاه... نحن لا ننجب إلاَّ قطَّاع الطرق والمجرمين. فهل لي أن أفخر بنسبي بعد كل هذا يا صاحب الجلالة؟

فيليب : حسناً، حسناً... لنترك هذا الأمر جانباً. ما هي الأخبار التي جئتنا بها أيها السمَّاك؟

السمَّاك: كنت في جيش الأوراني. منذ ثلاثة أيام بسطت سفن الغوزيين أشرعتها وهي الآن في طريقها إلى هنا. بعد عدة أيام ستشنُّ هجومها على بريل يا مولاي.

فيليب : هذا أمر نتوقَّعه... ماذا وراءك أيضاً؟

السمَّاك: الخبر الثاني قد يبدو لكم تافهاً، لكنَّي أؤكِّد لكم أنه لا يقل أهمية عن الخبر الأول... لقد أرسلوا إلى بريل شخصاً يدعى تيل أولين شبيغل!

فيليب : مهرِّج؟

السمَّاك: إنه شخص خطير جداً يا صاحب الجلالة...

فيليب : لهذا أقول إنه مهرِّج!

السمَّاك: لا يستبعد أن يكون الأوراني قد كلفه بالتحضير لاستقبال السفن.

فيليب : (للجنرال) اقبض على تيل أولين شبيغل واعدمه فوراً.

السمَّاك: أرجوك يا صاحب الجلالة أن تكلِّفني بهذه المهمَّة.

فيليب : (بامتعاض) ولماذا كلُّ هذا الاندفاع؟

السَّماك: تيل ثعلب ماكر. وأنا أعرفه شخصياً... فضلاً عن ذلك لي حساباتي الخاصة معه...

فيليب : وكيف أصدِّقك؟! قد تكون شريكاً له! أين البرهان؟

السمَّاك: إنني كاثوليكي عتيد يا صاحب الجلالة. وهذا يمكن أن يؤكده صاحب النيافة رئيس محاكم التفتيش. لقد وشيت بوالد تيل فأحرقوه، وهذا يمكن أن يؤكده أي شخص في مدينة دامه. عائلة تيل خبَّأت النقود حين التفتيش، لكنِّي تسلَّلت إلى منزلها وأخذتها... (يخرج من عبّهِ كيساً مليئاً بالنقود) إليكم نصفَ المبلغ، فهو من حق الملك، وأحضرته لجلالتكم! لقد حاولوا قتلي وأنا الآن منبوذ ملعون!.. هذا كل شيء! ليس عندي براهين أخرى.

فيليب : هذا يكفي... حسناً! إنَّني أكلِّفك بمهمِّةِ اعتقال تيل أولين شبيغل!.. خذ مجموعة من الجنود والجواسيس... أنت أدرى مني بهذه الأمور! والآن انصرف.

السمَّاك: أشكركم يا صاحب الجلالة.

فيليب : (يُبعِد كيس النقود برجله) أما النقود فاحتفظ بها لنفسك.

السمَّاك: لا، لا يا صاحب الجلالة... إنَّها حصَّتكم!

فيليب : (يصرخ متفجراً) كُفَّ عن المساومة! لستَ في البازار أيها السمَّاك! انصرف. (يلتقط السمَّاك كيس النقود ثم ينصرف).

اللعنة. مع من نضطر للتعامل في هذه الحرب! أعداؤنا شحَّاذون وأصدقاؤنا سِفْلَة!.. ما هذه الأُمَّة! يجب إحراقهم فعلاً.. كلّهم! مهما كان هذا قاسياً ومريعاً فيجب إحراقهم عن بكرة أبيهم.. حتى الأطفال! إذ لو لم يبقَ في فلاندريا إلاَّ صبيٌّ واحد وبنت واحدة فسيبدأ كل شيء من جديد. (لآنَّا) أليس كذلك يا سيدتي؟

آنا : من الصعب عليَّ أن أحكم في هذا الأمر يا صاحب الجلالة، فأنا فلامنكيَّة!

فيليب : هكذا إذن؟! فهمت الآن من أين لك هذه الصلابة والعناد! أهنئك يا جنرال! ليست مدافعك هي المموَّهة فقط، ولكن زوجتك أيضاً.

الجنرال: آنَّا كاثوليكية يا صاحب الجلالة، وقد وهبت روحها لإسبانيا.

فيليب : روحها لإسبانيا وجسدها لك... (يضحك، ثم يقطع الضحك فجأة) يا له من مزاح... لقد انحدرتُ في هذه الجولات إلى مستوى مزاح العسكر... وداعاً.

(يخرج فيليب يتبعه الجنرال. تبقى آنا، التي تشرع سيفها وتلوِّح به في الهواء عدَّة مرَّات، ثم ترتمي على الأريكة وتجهش بالبكاء. في هذه الأثناء يظهر تيل في النافذة ويراقب كل هذا المشهد الصامت).

تيل : أحسنتِ يا سيدتي! يستحقُّون...

آنا : من أنت؟

تيل : عابر سبيل.

آنا : وماذا تريد؟

تيل : إني أبحث عن الجهة المقابلة للشارع... ألا تقولين لي أين تقع؟

آنا : (تشير له) هناك.

تيل : غريب. كنت هناك فقالوا لي هنا... (يقفز إلى الداخل عبر النافذة).

آنَّا : (تُشهر المسدس) ولا حركة!

تيل : احذري يا سيدتي! قد تصيبين قلبي وهو لك!

آنا : سأعُدُّ حتى ثلاثة، فإذا لم تقل من أنت...

تيل : (مقاطعاً) عاشق! عاشق متيِّم، ألم تفهمي هذا مباشرة؟ أسبوعين وأنا أتبعك في المدينة، أركض خلف عربتك، وأُمضي الوقت تحت شرفتك. لماذا تهملينني؟

لماذا لا تردِّين على رسائلي؟

آنا : أنا لم أتلقَّ أيَّ رسائل!..

تيل : هل يعقل أنها لم تصل؟ عجيب... كتبت على الظرف: إلى أجمل امرأة في بريل... يبدو أنني أخطأت. كان ينبغي أن أكتب: إلى أروع امرأة في فلاندريا...

آنا : هل تعتقد أنني أُصغي لمثل هذا الغزل الرخيص!

تيل : حاولي يا سيدتي. هذا ممتع جداً. للأسف لم نعد نثق بكلمات الآخرين، لدرجةٍ أنستنا أن بعضها صادق!..
ألا تصدِّقين أن شخصاً قد يقع في حبك؟ ألا تستحقِّين حبَّاً حقيقياً؟

آنا : لم أقل هذا الكلام. لكن بماذا تثبت صدق قولك؟

تيل : بأي شيء تريدين! (يتقدم نحوها)

آنا : مكانَك! أثبِتْ ذلك دون استعمال اليدين!

تيل : حسناً... سأحاول، رغم أنك تحرمينني من حجَّة دامغة... لقد وقعت في حبك من النظرة الأولى... رأيتك في الشارع فتجمَّدت في مكاني...

آنا : وهل كثيراً ما يقع لك ذلك؟

تيل : كثيراً يا سيدتي. لكنَّ هذا لا يعني أنني متقلِّب الأهواء. الأصح أن تقولي عني إنني ذو طبيعة باحثة! على الرجل أن يحبَّ مراتٍ عديدةً كي يقع اختياره على امرأة واحدة يفضِّلها على كل النساء الأخريات...

آنا : (بسخرية) وهذه المرأة هي.. أنا؟ يا إلهي، لماذا أصغي إلى كل هذا الهذيان؟ لماذا لم أُطلق عليك النار أو أطردك من هنا؟

تيل : لأنك لا تريدين ذلك... إنك تودِّين أن أبقى وأن أتحدَّث معك... يمكن مقاومة هذه الرغبة طبعاً، ولكنَّ هذا غباء... إننا نُمضي حياتنا كلَّها في المقاومة... نقاوم الأعداء، نقاوم المِحن، ولكنْ لا بأس من أن يعيش الإنسان في وئامٍ وسلام مع ذاته على الأقل...

آنا : ماذا تريد مني؟

تيل : ماذا يريد العاشق من معشوقته؟.. لا شيء. أن يكون بالقرب منها فقط... أن يرى وجهها ويسمع صوتها... (يجلس بالقرب منها) هكذا... قولي يا حبيبتي، قولي...

آنا : ماذا؟

تيل : هل نسيت؟ غير معقول!.. إنك ترددين هذه الكلمات كل ليلة... «تيل، حبيبي، تيل، إنني أنتظرك منذ زمن طويل...»

آنا : (بصوت نيللي) تيل، حبيبي تيل، «إنني أنتظرك منذ زمن طويل...»

تيل : عيناي تعبتا وهما تراقبان الدرب...

آنا : عيناي تعبتا وهما تراقبان الدرب...

تيل : قلبي أَمَضَّهُ الانتظار...

آنا : قلبي أَمَضَّه الانتظار...

تيل : متى ستأتي إلى حبيبتك نيللي؟

آنا : اسمي آنا!

تيل : لا تجادليني يا حبيبتي، أنا أعرف ذلك أفضل منك... (صمتٌ).

آنا : هل ستذهب؟

تيل : نعم، حان الوقت، فقد طلع الصباح...

آنا : ابقَ معي قليلاً...

تيل : لا أستطيع.

آنا : هل ستعود؟

تيل : لا، لكن لا تغضبي مني.

آنا : كنت أعرف. ومع ذلك فسوف أنتظرك...

تيل : وداعاً...

آنا : خُذِ الخريطة، فقد جئتَ من أجلها يا تيل، أليس كذلك؟

تيل : نعم، على مايبدو. أما الآن فلست أدري. (يأخذ الخريطة). ورغم كل شيء فقد كنت صادقاً في كلِّ ما قلته لك!

آنا : طبعاً يا حبيبي... اذهب!

(يخرج تيل وتبقى آنا جالسة ومستغرقة في التفكير. يدخل السمَّاك)

السمَّاك: إنه تيل. لقد رأيته. رأيت كيف قفز من فوق السياج. كان هنا، أليس كذلك؟ إني أسألك يا سيدتي! هل كان هنا أم لا؟

آنا : هذا ما أريد معرفته أنا أيضاً... (تخرج).

السمَّاك: (يقترب من مقدمة المسرح)

فَرَّ المطلوبُ وكنتُ على

وَشْكِ القبضِ عليهْ

سأقصُّ الآثارَ وأتبعُهُ

قد أُصبِحُ مطلوباً نفسي

ويكون هو الساعي في طلبي!

(بامتعاض) أشعار سيئة يا إيوست! «فر المطلوب وكنت على وشك القبض عليه...» شعر سخيف! لم يُنْعِمِ الربُّ عليَّ بموهبة الشاعر... (يرفع عينيه إلى السماء). كن كريماً معي مرة يا رب. منحتَني العقل والموهبة. لكنني أفهم كل شيء ولا أستطيع فعل شيء. هل هذا عدل؟ إني أخدمك بصدق وإيمان وأقدِّم أعداءك طعاماً للنيران وأنت غير مبالٍ بخدماتي... (ينتقل فجأة للصراخ). لقد تعبتُ يا رب! فلا تسمح للناس بإهانتي! لا تسمح لأحد أبداً.. حتى للملك نفسه! لقد تخليتُ لك عن كل شيء: البيت والوطن والأصدقاء! وأنا لا أطالبك بالمقابل إلا بشيء بسيط...ابتسامة على الأقل... وإلا

فإنني لن أحتمل أكثر. قواي شارفت على النفاد وبدأ الشك يتسلل إلى نفسي... هل تسمعني.. (يخرُّ فجأة راكعاً وهو يرتجف). سامحني واعفُ عني يا ربّ... إني لا أعرف ما أقول... لا تتخلَّ عن عبدك يا ربُّ واصفح عنّي... لا تتخلَّ عنِّي... إنِّي لا أحتمل الوحدة. (يصلِّي).

ـ إظلام ـ

الحصن

(أحد حصون مدينة بريل، على الخشبة عدد من الجنود الإسبان مع عريفهم. يدخل الضابط المرتزق ريزنكرافت مسرعاً).

العريف : المجموعة، استا - ا - ا - عِدْاّ! (يقترب من الضابط). جماعة حراسة الحصن من الجيش الإسباني جاهزة للتدريب يا سيد ريزنكرافت.

ريزنكرافت : (يتفقَّد الجنود بعدم رضا) شفاخ... زير شفاخ! هذا ليس مجموع عسكر... هذا همج...

العريف : نعم يا سيدي الضابط!

(يظهر تيل وهو في ملابس جندي إسباني).

تيل : يا حضرة العريف، هل تسمح لي بدخول الصف؟!

ريزنكرافت : (وقد رأى تيل) من يكن هذا؟

العريف : مستجدٌّ يا سيِّدي الضابط! لقد عُيِّنَ اليوم في جماعة الحرس...

ريزنكرافت : مستجدّ!... اوه ماين غوت!.. إنه... هذا...

تيل : (مقاطعاً) هل تسمح لي يا حضرة العريف بالتحدث إلى سيادة الضابط؟

ريزنكرافت : سأقول لهم إنك خدم الغوزيِّين...

تيل : أنت أيضاً خدمت الغوزيين، أليس كذلك؟

ريزنكرافت : (بخوف) هذا كان غلطة، أنا خان الغوزيين...

تيل : أنا خان الغوزيين...

ريزنكرافت : أنا اليوم يخدم إسبانيا...

تيل : وأنا يخدم...

ريزنكرافت : أنت كذَّاب!

تيل : وأنت كذَّاب! لِنَكُفَّ عن هذه المساومة يا سيد ريزنكرافت! الأفضل أن يلتزم كلٌّ منَّا الصمت... وإلاَّ فالإعدام بانتظارنا، وأنت سيعدمونك أوَّلاً! غووت؟

ريزنكرافت : غووت! أدخل إلى صف...

(تيل ينضمُّ إلى الجماعة).

المجموعة... للتدريب استا - ا - ا - عِدّْ! السير في المكان! واحد، اثنان... واحد، اثنان...

تيل : يا حضرة الرقيب، هل تسمح لي بالتحدث إلى السيد الضابط؟

العريف : نعم!

تيل : سيدي الضابط، ممكن كلمة؟ (يقود ريزنكرافت من ذراعه جانباً) هذا التخبيط في المكان لا يعجبني.

ريزنكرافت : ماذا يعني؟!

تيل : يعني أن نبتعد بالجنود عن هذا المكان. أحتاج إلى البقاء هنا وحدي... وفوراً!

ريزنكرافت : (بامتعاض) أنت يأمر علينا؟!

تيل : نعم! إذا كانت حياتك غالية عليك... وطالما لا فرق عندك من تخدم فكن على الأقل جديراً بالنقود التي تُدْفَعُ لك... (يصرخ به) نفِّذِ الأمر!

ريزنكرافت : (يصفق بكعبي قدميه) يا فول (حاضر بالألمانية). (للجنود) المجموعة... إلى اليمين دُر! عَدْوَاً، إلى الأمام سِرْ!

العريف : سيدي الضابط، مغادرة الحصن ممنوعة.

ريزنكرافت : مناقشة ممنوعة...

العريف : سيدي الضابط، هذه نقطة الحدود الأخيرة في حرس السواحل. هنا...

ريزنكرافت : (يقاطعه) سكوت! إنكم إسبانيون وسخون منتنون... (لتيل) أنت تبقى لحراسة موقع. (للجنود) إلى الأمام، سِرْ! (الجماعة تغادر المكان). هذا ليس حرب، هذا بيت مجانين! (يخرج)

(تيل يشغل مكان الحرس. يدخل الجنرال دون لوميز مسرعاً)

الجنرال: يا حرس!

تيل : نعم يا سيدي!

الجنرال: لماذا تقف كالخشبة؟ لماذا لا تسأل عن كلمة السرِّ؟

تيل : لأنَّي عرفتك يا صاحب السعادة!

الجنرال: مهما كان، يجب عليك أن تسأل كل إنسان عن كلمة السر.

تيل : حاضر سيدي! (يرفع البارودة) كلمة السر!

الجنرال: (مضطرباً) ها أنا قد نسيتها... حسناً أبعد البارودة! ألم ترَ غرباء؟

تيل : ما عداكم يا سيدي، لا أحد!

الجنرال: أنا لست غريباً أيها الأبله!

تيل : نعم يا سيدي. أنت واحد منَّا.

الجنرال: لست بحاجة إلى شهادتك... أين الجماعة؟

تيل : ذهبوا للتدريب العملي.

الجنرال: ذهبوا. وهل هم في كامل عقولهم؟

تيل : لست أدري! السيد ريزنكرافت ابتعد بهم عَدْوَاً باتِّجاه الساحل.

الجنرال: في مثل هذا الوقت؟! الأغبياء! نحن هنا في خط الدفاع الأول، هذه بوابة بريل... لعنة الشيطان؟... فلاحون.. أنا مضطَّر لاستخدام المرتزقة، مضطَّر أن أدفع لهم ذَهَبَاً، أما هم فمشغولون بالركض في أحرج اللحظات!.. قد يبدأ الهجوم في أية لحظة... (يلقي نظرة إلى بعيد) ماذا هناك؟

تيل : لا أعرف.

الجنرال: لمحت هناك ظلالاً... يحتمل أنهم الغوزيون!

تيل : سنتأكَّد الآن من ذلك! (يصرخ) هه... يا غوزيون! أهؤلاء أنتم!... ردُّوا إذا كنتم أنتم!

الجنرال: لماذا تصرخ أيها الغبي؟ ها هم قد اختفوا.

تيل : إذن ليسوا الغوزيين يا صاحب السعادة، وإلاَّ كانوا ردُّوا.

الجنرال: أحمق! من أين هؤلاء الأغبياء في جيشي! إني أسألك: من أين أنت أيها الغبي؟

تيل : من برشلونة.

الجنرال: (وقد لان فجأة) يا للشيطان، وأنا أيضاً من برشلونة! منذ متى غادرتها؟

تيل : منذ أسبوع فقط يا صاحب السعادة!

الجنرال: ما الجديد هناك؟ كيف الأحوال؟

تيل : حلَّ فصل الربيع هناك الآن.

الجنرال: هذا أعرفه بدونك! ما دام الربيع قد حلَّ هنا، فهذا يعني أنه حل هناك أيضاً.

تيل : لا، يا سيِّدي. الربيع هناك مختلف! تزهر أشجار الكستناء... ويُثمر الفريز...

الجنرال: الفريز؟ (يتنهد بحزن) آه، برشلونة، برشلونة... يا إلهي كم مضى عليَّ من سنين لم أزرها فيها! حدِّثني يا بنيّ، ما الجديد هناك، كيف تسير الحياة؟

تيل : (مضطرباً نوعاً ما) كالعادة يا صاحب السعادة... البرشلونيون يتنزَّهون مع البرشلونيَّات... والأطفال يتراكضون...

الجنرال: (حالِماً) نعم، نعم!.. والطيور تطير فوق تمثال القديس فرانسيسكو...

تيل : تطير يا صاحب السعادة!... وتحطُّ في بعض الأحيان...

الجنرال: نعم، نعم... (يتنهد) أما هنا فحرب، حرب دون نهاية. أيُّ شيطان قادنا إلى هذا البلد الغريب يا بنيّ؟

تيل : لا أعرف يا سيدي!

الجنرال: (بحزن) وأنا أيضاً لا أعرف... (يتحوَّل فجأة إلى الصرامة) انتهى الحديث! إنك تحرس النقطة

الأمامية الأولى من خط الدفاع. هنا مدخل الخليج، فكن حذراً.

تيل : حاضر يا سيدي!

الجنرال: (بأسى) تقول يُثمر الفريز؟!

تيل : بوفرة يا صاحب السعادة!

الجنرال: انتبه لنفسك أيها الأبله. (ينصرف)

(يظهر عدد من الغوزيين. يتسلّل أحدهم ويلوِّح بالعصا يريد ضرب تيل)

تيل : (دون أن يلتفت) انتبه يا صديقي قد تحطِّم رأسي وبعدها ستكون مسؤولاً!

الغوزي: تيل! إنه تيل يا شباب!.. (يصرخ) إنه تيل أولين شبيغل يا صاحب السمو!

تيل : (يؤدِّي التحيَّة) حاكم مدينة بريل في استقبالكم يا صاحب السمو!

الأوراني: سوف أكافئك على ذلك.

تيل : شكراً! عدة براميل من النبيذ لا تضرُّ... (يُخرِج الخريطة) هذه خريطة مواقع الدفاع عن الشواطئ يا صاحب السمو. إنها ستساعدكم على قيادة السفن إلى داخل الخليج...

الأوراني: أنت ستقودها.

تيل : لا أستطيع. أنا مضطرٌّ للعودة إلى المدينة... يجب عليَّ أن أجد لامي!

الأوراني: ليأخذْه الشيطان!

تيل : إنَّه صديقي!

الأوراني: من الغباء أن تخاطر بحياتك عشيَّة النصر...

تيل : غباء... ولكنه صديقي!

الغوزي : أين ستبحث عنه في هذا الليل؟.. إنه الآن يمضي ليلته في أحد بيوت الدعارة على الأغلب...

تيل : من أجل صديقي أنا مستعدٌّ للذهاب حتى إلى هناك...

ـ إظلام ـ

بيت الدعارة

(منزل العجوز ستيفن. مجموعة من الفتيات يغنيِّن وعلى أكمامهنَّ اليسرى دوائر فضِّيَّة علامة على مهنتهن الوضيعة)

لماذا يغطِّي النَّدى الزهرَ

عندَ السَّحَرْ؟

لماذا دموعُ الصَّبايا الرَّقيقاتِ

مِلْءُ النَّظرْ؟

وتبردُ نارُ الدِّماءِ سُدى؟

لماذا الهوى يا إلهي قَدَرْ!

ولِمْ يجمعُ النَّحلُ قطرَ الندى،

وقبلةُ ثغرِ الحبيبِ وَطَرْ!

تعودُ إلى زهرِها نحلةٌ

وليس لنا عاشق ينتظِر.

(يدخل السماك مع ستيفن)

السمَّاك: مرحباً يا بناتِ حوَّاء وخادماتِ إلهِ الحبِّ آمور، يا خبيراتِ الجنس البشريّ!

ستيفن: (للفتيات وكأنها تترجم كلمات السمَّاك غير المفهومة بالنسبة لهن) السيد يريد أن يقول: «مرحباً يا بنات»

السمَّاك: يكلِّفكنَّ صاحب الجلالة وهيئة التفتيش العليا بمهمة على قدر كبير من الأهمية...

ستيفن: « يعني شغل »!

السمَّاك: لقد ظهر مجرم خطير في المدينة... إنه الغوزي تيل أولين شبيغل...

ستيفن: « زبون »!

السمَّاك: طويل القامة...

ستيفن: « سُلَّم »...

السمَّاك: أسود الشعر جذَّابُ الطلعة.

ستيفن: « جميل وأسمر »...

السمَّاك : ينبغي إيجاده...

ستيفن : « لَقْطُه »...

السمَّاك: استدراجه...

ستيفن : « تطبيقُهُ »...

السمَّاك: والباقي يتكفَّل به رجالي...

ستيفن : « يعني كلابه »...

السمَّاك: المهمَّة واضحة؟

إحدى الفتيات : والحلوان؟

ستيفن : البنت تسأل عن المكافأة.

السمَّاك: ثلاثمئة فلورين.

ستيفن : (للفتيات) مائة فلورين.

السمَّاك: أنا قلت ثلاثمئة!

ستيفن : وأنا قسَّمتها: مائة للبنات، مائة لي، ومائة لك.

السمَّاك: (بأسى) ها أنا قد أصبحت قوَّاداً. (إلى السماء) هل هناك حدٌّ لذلِّي يا ربّ؟! (للبنات) والآن إلى العمل!

جُرُّوا إلى هنا كل من تشكُّون به... لا بأس من صيد مائةٍ من أشباه أولين شبيغل حتَّى يقع من نبحث عنه! إلى الأمام يا بنات الضلالة!

كان الربُّ في عونكن...

(تخرج البنات وخلفهن السمَّاك. يظهر الراهب كورنيلوس وهو يقود كاليكين)

كاليكين : اتركني يا أبتي، أرجوك. الموت أفضل...

كورنيلوس: الحيُّ أفضل من الميت يا ابنتي... لا تخافي! (لستيفن) لقد أحضرت لك هذه الشاة الضالَّة يا خالة.

ستيفن : أراها! (تنظر بعدم ارتياح إلى كاليكين) في الفترة الأخيرة أصبحت بضاعتك سيئة.

كاليكين : إني خائفة... اتركني يا أبتي.

كورنيلوس: من أجل أن يدخل الإنسان الجنَّة يا ابنتي يجب أن يمرَّ بكلِّ خطايا الدنيا... وهذه آخرها... (لستيفن) ولماذا سيئة؟ بضاعة جيدة جداً...

ستيفن : جلد على عظم!

كورنيلوس: بعضهم يحب النحيفات...

ستيفن : كل الرجال الآن يحبُّون السمينات.

كورنيلوس: موضة وتمضي...

ستيفن : حسناً. مائة فلورين.

كورنيلوس: خافي الله! خمسمائة!

ستيفن : لا تُدْخِلِ الله في أعمالنا.. مائة وخمسة وعشرون.

كورنيلوس: حرام عليك! هذا ثمن بقرة وليس ثمن إنسان... أربعمائة...

ستيفن : البقرة تتطلَّب عناية أقلّ: لا تحتاج ملابس، ولا أحذية، ولا أدوات زينة... مائة وخمسون!...

كورنيلوس: أنظري إليها، ابتسامتها كابتسامة العذراء. (لكاليكين) ابتسمي يا ابنتي...

كاليكين : (تبكي) لن أحتمل هذا يا أبتي...

كورنيلوس: وصوتها؟ صوت كصوت ال...

ستيفن : آخر كلمة، مئتان!

كورنيلوس: زيديها خمسين!.. إنها تجيد اللغة اللاتينية!

ستيفن : بضاعة كاسدة لا نحتاجها... مئتان! أو خذها إلى الدير...

كورنيلوس: (يتنهد) حسناً. اتَّفقنا. (لكاليكين) والآن يا ابنتي هذه المرأة هي سيدتك. اخدميها بإخلاص وسيري على درب المجدليَّة تصبحي قدِّيسة... (لستيفن) وأنتِ لا تظلمي هذه الطفلة يا ستيفن.

ستيفن : حسناً. (لكاليكين بحدَّة) امسحي دموعك أيتها الحمقاء واصعدي إلى فوق. غيِّري ملابسك وتبرِّجي فبعد قليل سيأتي الضيوف!

(كاليكين تنصرف)

سوف أحبها يا أبتي كما أحب ابنتي!

كورنيلوس: شكراً لك. الآن اطمأنَّ قلبي. (يخرج)

(يفتح الباب وتدخل إحدى الفتيات وهي تدفع لامي الذي يقاوم)

الفتاة : تعال أيها الجميل! ولو لساعة واحدة فقط...

لامي : اتركيني في حالي من فضلك! أنا لا أحتاج لمثل هذه الأشياء أبداً...

الفتاة : عندنا الحُسْن والأُنس والمرح... (لستيفن) أقنعي الضيف بالبقاء يا ماما...

ستيفن: أيُّ شيطان دفعك لإحضاره؟ (بصوتٍ منخفض) قالوا لك: طويل، نحيف، أسمر. أما هذا فعلى العكس تماماً!

الفتاة : (همساً) يبدو أنه من الغوزيين... ويعرف تيل أيضاً...

ستيفن: حسناً. سنرى. (للامي) لا تكسر خاطرنا يا سيِّدي... إبقَ عندنا وروِّحْ عن نفسك...

لامي : لست بحاجة إلى هذا. أنا متزوِّج!

ستيفن: صِحَّتين. أنا لا أدعوك للزواج... وفتياتي لا يهدمن بيوت الزوجية، لأن هذا بالنسبة لنا أمر مقدس... بيوت الزوجية تهدمها النساء الشريفات... يتسلَّلن إلى القلوب ثم يُفرِغن الجيوب...

لامي : لست بحاجة إلى فتياتك! أنا أحب زوجتي فقط، ولا أحد غيرها.

ستيفن: وكيف شكل زوجتك التي لا مثيل لها؟

لامي : إنها رائعة... رقيقة، رشيقة، شقراء... ليس لها مثيل في الدنيا.

ستيفن: سأختار لك واحدة أفضل منها.

لامي : اخرسي أيتها القوَّادة العجوز! ولا تتعرِّضي لهذه الأمور المقدَّسة!

ستيفن: ما رأيك أن تأكل لقمة؟

لامي : العشاء لا بأس... مع قليل من البيرة... ولا أكثر من ذلك.

ستيفن: حسناً... تفضَّل. (تُدخِله خلف الحاجز وتُجلِسه إلى الطاولة) هذا المكان مريح ولن يزعجك فيه أحد... مع ذلك سأرسل لك إحدى الفتيات.

لامي : سبق وقلت لا أريد!

ستيفن: إنها تدخل ضمن فاتورة العشاء... فتاة على ذوقك: شقراء، رشيقة...

لامي : لن أمس شعرة على جسدها مهما كانت!

ستيفن: كما تريد! سبحان الله، لكل ضيف طباعه الغريبة!

(تخرج ستيفن من خلف الحاجز فترى كاليكين التي لبست كغيرها من الفتيات)

أنتِ يا جديدة، اذهبي إلى الضيف. (همسا) حاولي أن تكشفيه...

كاليكين: ماذا؟

ستيفن : استدرجيه إلى الكلام. فهمتِ؟ اعرفي من هو، من أين أتى... وهل هو من الغوزيين!...

كاليكين: لا أستطيع.

ستيفن : تستطيعين. لا ترتجفي كورقة شجرة... الزبائن لا يحبُّون هذا. (تدفعها إلى خلف الحاجز)

لامي : (وقد رأى كاليكين) أنت؟!

(يرتمي عليها ويمطرها بالقبل. كاليكين تبكي بصمت. ستيفن تتنصت ثم تختلس النظر من خلف الستارة فترى عناق لامي وكاليكين)

ستيفن: (تضحك) هه... ويقول: «لن أمس شعرة على جسدها»! كلُّ الرجال متشابهون. في البداية يترفَّعون ويثرثرون، ثم يلصقون حتى يصعب طردهم!..

(يدخل تيل مسرعاً)

تيل : (يقترب من لامي ويمسكه من كتفه) اسمع يا صديقي!...

لامي : (مسروراً) أنت! كم أنا سعيد بمجيئك!

تيل : هس! لقد وقعنا في الفخ!

لامي : تيل، لقد وجدت كاليكين... إنها هنا، زوجتي في هذا المنزل!..

تيل : تشرَّفنا!... لنهربْ بسرعة!

لامي : إنها نقية طاهرة كما كانت... لا أسمح لك بأن تظن بها السوء...

تيل : أنا لا أظن بها السوء، ولكني أفكر بطريقة لا تجعلها أرملة. إصحَ أخيراً. هذا المنزول مصيدة! خذ كاليكين ولنهرب من هنا... بسرعة!

- ١٦٥ -

كاليكين: لن يسمحوا لنا بالخروج يا تيل... الباب يحرسه الجنود... (تظهر ستيفن وتقترب من تيل)

ستيفن: استرح يا سيدي. سيُحضِرون لك النبيذ الآن. هل أعجبتك هذه أم نطلب لك واحدة أخرى؟

تيل : اطلبي أخرى... والأفضل فتيات أخريات. استدعي جميع الفتيات أيتها العجوز!

ستيفن: جميع الفتيات؟ وهل يحتمل جسمك؟! أخشى على حياتك!

تيل : لا تخافي. إنها أمتع طريقة للانتحار! استدعيهن!

ستيفن: كما تريد... (تنادي) يا بنات! هيَّا إلى الزبون. (همسا لكاليكين). هذا أولين شبيغل! راقبيه ولا تبعدي نظرك عنه. سأستدعي السمَّاك... (تخرج)

(تظهر الفتيات وينظرن إلى تيل ثم يتضاحكن)

تيل : مرحباً يا بنات! ما رأيكن بالحديث عن الأمور السامية؟!

الفتيات: تفو! إنه ثرثاثر... وعدنا بالحب ثم اتضح أنه ناسك...

تيل : سيأتي الحب في وقته المناسب... أما الآن فلنتحدث عن الروح... هل يوجد عندكن ما تحلمن به؟

فتاة : طبعاً.

تيل : ماذا؟

فتاة : أن نشبع نوماً.

تيل : هذا حلم لا يتحقق! لنتحدث عن أحلام ممكنة التحقيق... ألا ترغبن بالزواج؟

الفتيات: ومن يقبل بالزواج بنا؟ اللَّهم إلا من يطمع بنقودنا...

تيل : هذا غير صحيح. هناك آلاف العرسان القادمين إلى هنا من جميع أنحاء فلاندريا. إنهم الغوزيون! شباب، شجعان، وعزاب... أرسلوني إليكن لطلب أيديكن...

فتاة : لا تصدقن ما يقول... إنه جاسوس...

تيل : إني خَطَّاب يا حمقاء! جئت لمساعدتكن في بناء حياة جديدة...

كفى كدحاً لمصلحة صاحبة هذا المنزول. ابدأن حياة جديدة لمصلحتكن!

فتاة : لا تصدقن ما يقول... إنه كذَّاب... قدِّمِ البرهان إن كنت صادقاً!

تيل : يا لَكُنَّ من مسكينات... لقد أفقدكن هذا المكان إنسانيتكن فلم تعدن تصدقن أحداً...

حسناً، سأبرهن على ما أقول! (يشير إلى لامي) هذا أحد شباننا الشجعان! لقد جاء إلى هذا المكان فأعجبته واحدة منكن و... لامي هل أنت مستعد للزواج بها؟

لامي : نعم مستعد.

تيل : (لكاليكين) وأنت أيتها الفتاة، هل توافقين على الزواج بهذا الجميل؟

كاليكين: نعم!

تيل : هذه واحدة قد دبَّرت أمرها... من التالية؟

الفتيات : أنا... أنا... أنا!..

تيل : لا داعي للتناحر. سنختار لكل منكن عريساً حسب ذوقها... شباب مستقيمون مجدُّون، شقر وسمر... ولكن بقي أمر واحد. عرسان المستقبل سيدخلون المعركة فجر غدا! سوف نهاجم بريل... وقد يستشهد كثير منهم إذا لم تقدِّمن لهم المساعدة. ومن المحزن أن تتحولن إلى أرامل قبل حفلة الزفاف.

فتاة : ماذا يجب علينا أن نفعل؟

تيل : إذا استدرجت كلُّ واحدة منكن هذه الليلة ضابطاً إسبانياً من حرس السواحل فسيسِّهل هذا وصول سفن الغوزيين إلى أهدافها!

فتاة : وماذا سيقول أزواجنا عن هذه الخطيئة؟

تيل : سيغفرونها، لأنها الخطيئة الأخيرة! ثم إن الهدف ليس الحب، بل الانتقام.

الفتيات: وافقنا!

تيل : إذن، إلى الأمام لمساعدة جيشنا المقدام!

(تفتح الأبواب ويندفع منها الجنود وستيفن والسمَّاك).

السمَّاك: قف يا تيل. إنك محاصر!

تيل : أنت مرة أخرى؟! آخ، ليتني قضيت عليك في تلك المرة يا سمَّاك... (يشهر سيفه)

فتاة : تيل، اهرب عبر النافذة... هناك ممر سري!..

(تيل يقلب الطاولات والمقاعد وهو يبارز الجنود. البنات يساعدنه في التملُّص، وأخيراً يقفز إلى حافَّة النافذة وفي تلك اللحظة يندفع السمَّاك نحو كاليكين ويضع حدَّ السكين على عنقها)

السمَّاك: تيل، انظر! (يتجمَّد الجميع)

حركة واحدة منك وأذبحها... أقسم بأن أفعل ذلك!

كاليكين: اهرب يا تيل ولا تأبه لي...

لامي : لا تلمسها أيها ال... (يندفع نحو كاليكين ولكن الجنود يمسكون به)

السمَّاك : سأذبحها يا تيل!

- ١٧٠ -

تيل : ما هي شروطك؟

السمَّاك: تُسلِّم نفسك وهي حرَّة.

تيل : كلاَّ! أُسلِّم نفسي وكلُّهنَّ حرَّائر!

السمَّاك: موافق!

لامي : اهرب يا تيل. خير لنا أن نموت جميعاً!

تيل : من الغباء أن يموت الجميع يا لامي... روحي مقابل عشر أرواح... ثمنٌ لم يسبق أن دفعه لي أحد من قبل!... انصرفوا! (يصرخ) انصرفوا حالاً فليأخذكم الشيطان!

(يخرجون فيُلقي تيل سيفه)

والآن خذوني أيها الجنود!

(الجنود يمسكون به ويقيِّدونه)

السمَّاك: خلاص يا فتى! الآن اقتربت نهايتك فعلاً!

تيل : إذن لماذا ترتجف بهذا الشكل أيها السمَّاك؟!

- **إظلام** -

ليلة الإعدام

(زنزانة السجن التي أُلقيَ فيها تيل. شَبَكٌ حديديٌّ، ضوء خافت، سكون كامل)

تيل : (يتقدَّم من الشبك الحديدي ويجرِّب متانته، ثم ينادي) هه... يا من هناك! هه... أيها الجندي! ردَّ عليَّ!

صوت: الكلام ممنوع مع المحكوم عليهم بالإعدام.

تيل : ولماذا؟ هه!... (يُصغي) لا تردُّ؟ غلطان! عندما ستودُّ الحديث معي يكون الأوان قد فات... حسناً، كما تريد... (يغنِّي بصوت منخفض) آخ تيلي - تيلي - تيل، سنغنِّي وسنمرح. آخ تيلي - تيلي - تيل...

صوت: الغناء ممنوع!

تيل : ما هذا! عليك اللعنة، كل شيء ممنوع!.. والتفكير؟ هه، أيها الحارس، هل التفكير مسموح به؟

صوت: لست أدري.

تيل : اذهب واسأل إدارة السجن! (يجلس ويفكِّر. يظهر كلاس في مخيلته) مرحباً يا والدي!

كلاس : أتيت لوداعك.

تيل : تريد القول أتيت لاستقبالي؟!

كلاس : أقول ما أقول... أتيت لوداعك...

تيل : لا تمزح! سنلتقي في القريب العاجل... اذهب وابحث لي عن غيمة ناعمة طريَّة في السماء.

كلاس : إنني لم أعش إلا في ذاكرتك فقط. وإذا ما انتهيتَ أنت، انتهيتُ أنا أيضاً... لهذا تعال أودِّعك!

تيل : ماذا تريد أن تقول؟.. هل جئت لامتحاني فيما إذا كنت سأتشبَّث بالحياة أم لا؟.. هل ظننت أنني سأركع ذُلاً وأنبح كالكلاب؟..

كلاس : كلُّ شيء إلا هذا.

تيل : يا لك من مهذار عجوز!.. كيف تطرَّق الشكُّ إلى نفسك؟

كلاس : اسمع يا تيل، إنني لم آتِك كي أحطِّم إرادتك، ولكن... كيف أشرح لك؟ النتيجة عبثية... احترقت

أنا معتقداً أن حياتك سوف تتغيَّر نحو الأفضل... لكنك انتهيت إلى ما انتهيت إليه أنا! وليس في الأفق ما يشير إلى نهاية هذا الوضع... ونحن نموت ونموت... الموت هو النتيجة الوحيدة...

(يظهر الملك فيليب في مخيلة تيل)

فيليب: والدك على حقّ!

تيل : إني لم أَدْعُك يا صاحب الجلالة.

فيليب: لكني خطرت في بالك!

تيل : في مثل هذه الدقائق يخطر في البال كثير من الأمور السخيفة!..

فيليب: اسمع يا تيل، اسمع... ولا تستعجل بالمقاطعة! إنك تسير إلى الإعدام مفترضاً عن سذاجة ودون أيِّ ظلٍّ من الشَّكِّ أنَّ لهذا قيمةً ما... ألا يمكن أن تكون القيمة في حياتك الآنية؟ إنك فنان، وكان بإمكانك رسم لوحات مدهشة قد تخلِّد ذكراك إلى الأبد... قارنْ... ووازنْ!.. أيهما أكثرُ قيمةً للإنسانية: الفنان تيل أولين شبيغل، أمِ المهرِّج المغمور الذي أُعدم في عهد فيليب الثاني؟..

تيل : (بنفاد صبر) يا صاحب الجلالة...

فيليب: انتظرْ - واصغِ إليَّ حتى النهاية... إنك تنتقم منِّي بسبب القتلى من أبناء وطنك... بسبب البيوت المحروقة... ولكنْ فكِّر: ألا يمكن أن يكون هذا شيئاً طبيعياً؟ هل يمكنك أن تكره الهزَّة الأرضيَّة أو ثورة البركان؟ في مثل هذه الأحوال يموت الناس أيضاً... ولكن ماذا في ذلك؟ الطبيعة تتجدَّد عبر الدمار... الملوك هم أيضاً من نتاج الطبيعة، فلماذا تكرهني، إذن؟ على العموم، ماذا تعرف عني؟... عن أفكاري؟.. عن ليالي الأرق التي أتعذَّب فيها؟.. لماذا لا نحاول أن يفهم بعضنا بعضاً؟

تيل : لأن هذا مستحيل!

فيليب: لكن لماذا؟

تيل : لأني مقابلَ أسئلتك المئة، أستطيع طرح مئة سؤال من عندي!.. ماذا نفعل برماد الوالد يا صاحب الجلالة؟ ماذا نفعل بعشرة آلاف قتيل من الهوغينوت الذين أُعدِموا في ليلة واحدة؟ ماذا نفعل

بذلك الطفل الذي ولد في تلك الليلة ولم يتسنَّ له أن يصبح كاثوليكياً هوغينوتياً، ومع ذلك أحرقوه مع الآخرين؟! إذا لم تُجِبْ على أسئلتي فلن أُشغِل نفسي بالتفكير في أسئلتك. أضف إلى ذلك أني أبصق على كونك من نتاج الطبيعة. إني أكره الطبيعة عندما تزرع الموت... وسيأتي الوقت الذي أُصَفِّي فيه الحساب حتى مع البراكين، أما الآن فالعين بصيرة واليد قصيرة! لهذا لا تبحث عن الشفقة عندي يا صاحب الجلالة!.. انصرف من هنا! الله يعطيك!...

(يخرج فيليب)

كلاس: لم تقصِّر في حقِّه يا بنيّ!

تيل : لم أقل له ثلث ما يستحقٌّ... الكلمات! لا أستطيع إيجاد الكلمات...

كلاس: لا، أحسنت القول... أنا شخصيَّاً لا أستطيع ذلك... عندما كنت أقع في مثل هذه المواقف، كانت قبضة يدي تسبقني إلى وجه الخصم... هُوْبْ، وينتهي الجدال!

تيل : عصرنا يختلف يا والدي. لا يجوز أن توجِّه ضربتك إلى الوجه، بل إلى الدماغ! ومن أجل هذا لا بدَّ من الكلمات...

كلاس: إذنْ قُل لي بعض الكلمات قبل الوداع...

تيل : حسناً... (صمتٌ) لنصمت قبل الوداع...

كلاس: لنصمت... لا تشغل بالك فيَّ يا بنيّ، فأنا لم يعد لي وجود.

(يخرج كلاس. تحتلُّ نيللي مكانه في مخيلة تيل، على كل حال هذه ليست بعد نيللي، بل هي الشقراء التي قابلها تيل في وقت ما)

تيل : مرحباً يا نيللي!

نيللي، الشقراء: لماذا كذبت عليَّ؟ قلت سأعود قريباً ولم تعد. وأنا كالبلهاء، أنتظر وأنتظر...

تيل : كنت في طريقي إليك يا حبيبتي... أخَّرتني الحروب!

نيللي، الشقراء: أنا أنتظر وأنتظر... قلتَ حدَّثك البابا عنِّي، قلت إنك تحلم بي...

تيل : كلُّ ما قلته لك صحيح؟

نيللي، الشقراء: جاؤوا لخطبتي، فظننت أن الخطيب هو أنت. وبعد أن وافقت اتَّضح أنه ليس أنت... وها أنذا أنتظر وأنتظر...

(تختفي الشقراء وتحلُّ آنَّا محلَّها)

نيللي، آنا: هل وجدتَ الطرف المقابل للشارع يا تيل؟

تيل : مازلت أبحث عنه...

نيللي، آنا: وأنا أبحث كذلك... لقد هربت من البيت يا تيل... تجوَّلت في كل أنحاء المدينة، بحثت عنك في فلاندريا كلِّها...

(تختفي آنَّا وتحلُّ نيلِّلي محلَّها)

تيل : التقينا أخيراً يا نيللي!

نيللي: (غاضبة) أخيراً!.. أنت دائماً هكذا!.. حتى في مخيلتك أشغل المكان الأخير.

تيل : مخطئة يا نيللي. إنك في المكان الأوَّل دائماً، وهذا يحدث لأن رأسي مركَّب بالمقلوب. أسمعي يا نيللي،

أريد أن أقول لك شيئاً في منتهى الأهمية: أنا أحبك جداًا.. قلت لك هذه الكلمات مئة مرة، والآن اتضح أنني أحبك فعلاً... شيء عجيب! هل تصدّقينني؟

نيللي: أصدّقك. ولكن مع ذلك حظُّنا عاثر... فأنا إمَّا أنتظرك، وإمَّا أركض خلفك في كلِّ أنحاء فلاندريا...

تيل : حظُّنا عاثر فعلاً... ولكن لماذا يجب أن يكون حظنا جيداً؟ هل نحن أسوأ من غيرنا؟

نيللي: تيل، حبيبي تيل إنني أنتظرك منذ زمن بعيد... تعبت عيناي وهما تراقبان الدرب... وانكمش قلبي بين الضلوع... لنذهب إلى البيت يا تيل!

تيل : سنذهب بعد قليل.

نيللي: هل تخدعني من جديد؟

(يسمع صرير بابٍ يفتح)

تيل : لا، صدقاً! لحظة واحدة... عندي هنا شغلة صغيرة... لن تأخذ وقتاً طويلاً!.. الوداع! (تختفي نيللي. يدخل الجلاد إلى الزنزانة)

الجلاد: جئت لأخذك.

تيل : مفهوم.

الجلاد: صلِّ صلاتك الأخيرة أيها الفتى.

تيل : لا أرى فائدة من صلاتي الآن!

الجلاد: كما تشاء...

تيل : ماذا قررت المحكمة؟ بالمقصلة أم بالمشنقة؟

الجلاد: حرقاً.

تيل : لا بأس... هذا الطريق سبق وعبَّده لي والدي. هيَّا!

الجلاد: (يخرج من جيبه عُصابة) تعالَ أعصب لك عينيك.

تيل : هذا ليس عدلاً. أنا أيضاً أريد أن أتفرَّج على إعدامي.

الجلاد: ممنوع. (يقترب من تيل وينظر إلى وجهه) اللعنة! هذا ابن كلاس!.. مرحباً يا تيل، لم أعرفك في العتمة... (ينزع القناع عن وجهه) هل تذكرني أنا جلاد مدينة دامة!

تيل : أعرفك، أعرفك. لا تصرخ!

الجلاد: (بسرور) يا له من لقاء! استدعوني اليوم وقالوا لي ستعدم غوزياً. وأنت تعرف أنه لا فرق عندي... غوزي، إذن غوزي!.. وفجأة يتَّضح أنه أنت. يا له من لقاء!.. مرحباً يا صديقي، يسعدني هذا اللقاء بك!

تيل : وأنا أيضاً!

الجلاد : سمعت في العتمة صوتاً ليس غريباً عني... فقلت في نفسي: صوت مَنْ هذا يا تُرى! وإذا به أنت! يا للمفاجأة!

تيل : هل تعمل هنا منذ مدَّة طويلة؟

الجلاد: منذ ثلاثة أيام فقط... هل تعلم يا تيل، منذ أن أعدمت والدك انقلبت حياتي رأساً على عقِب... جمعت كلَّ أفراد عائلتي وغادرت المدينة، شعرت أنني لا أستطيع قتل مزيد من الناس... اشتغلت بعد ذلك حصَّاداً وحمَّالاً ورعيت الماشية... ولكن كيف يمكن للإنسان أن يعيش على مثل هذا الدخل الآن؟! عندي ثلاثة أولاد ياتيل...

أكبرهم عمره سبع سنوات... ما رأيك أن نشرب يا تيل، آ؟ (يخرج من عُبِّه زمزميِّة) نَخْبُ حظِّك! (يشرب جرعة).

تيل : شكراً! أتمنَّى لك الحظ نفسه!

الجلاد: (يتابع حديثه) وهكذا يا عزيزي تنقَّلتُ من مهنة إلى أخرى. لكني في النهاية لم أحتمل... وأخيراً انتهى بي المطاف إلى مدينة بريل، وهنا سمعت أن الإسبان بحاجة إلى أكزيكوتور... فظننت أنهم بحاجة إلى نجَّار... ولكن اتضح أن هذه الكلمة معناها جلاَّد... فقلت في نفسي: ليأخذهم الشيطان، سأعمل في هذه المهنة فترة قصيرة لتوفير بعض المال، ثم أترك العمل وأذهب إلى حيث أريد!..

تيل : وكم سيدفعون لك مقابل إعدامي؟

الجلاد: مائتين!

تيل : مبلغ لا بأس به! وبالمقارنة مع أسعار اليوم، يعتبر مبلغاً جيِّداً... تستطيع أن تشتري به معطفاً من الفرو لزوجتك...

الجلاد: (يتناول جرعة كبيرة) زوجتي يمكنها أن تنتظر. لقد قررت بناء بيت يا تيل، جدرانه مــن الخشــب الطبيعي وسقفه من الآجُرِّ.

تيل : أجرة إعدامي لا تكفي لبناء بيت، لا بد لك من إعدام عشرة أشخاص على أقلِّ تقدير، فالآجُرُّ ارتفع سعره في هذه الأيام...

الجلاد: نعم، ارتفع سعره! (يجرع ويفكر) إكزيكوتور!.. هل ترى أي كلمة اخترع أولاد الكلبة؟! آه، يا تيل، أكثر ما يثير قرفي هو أنني أخدم الإسبان... عندما كنت أخدم مواطني بلدي كان الأمر أسهل، لكن خدمة الإسبان.. أمر في منتهى الحقارة... (يمدُّ يده إلى الزمزميَّة)

تيل : (يمنعه) يكفي! توقف عن الشرب، وإلا فلن تستطيع إيصالي إلى مكان الإعدام.

الجلاد: لا تقلق... إنني لم أعد أستطيع الصعود إلى منصة الإعدام صاحياً.

تيل : كما تشاء، فلنذهب! سيدخل الغوزيون إلى المدينة عند الفجر وقد يضيع منك ثمن الآجُرِّ المطلوب للسقف.

الجلاد: تهزأ مني؟

تيل : وهل تريدني أن أبكي عليك؟

الجلاد: أتعلــم يا تيل... أريــد الالتحاق بالغوزيين. لكني أخشى ألا يفهموني فيشنقوني...

تيل : محتَملٌ جداً!

الجلاد: لا يحزنني أنهم قد يشنقونني، ولكن يحزنني أنهم لن يستمعوا إليّ! أمَّا أنا فأتعاطف معكم، يسعدني تغلُّبكم على الإســبان... أنا على العموم إنســان مرح... مقالبي تثير الدهشة والعجب أحياناً!.. في إحدى المرات تنكَّرت في ثياب امرأة إسبانية وزيَّنت أذني بالحلق... وقلت لأحــد الجنود (يقلِّد صوت المرأة) تعال إلــى هنا! تعال... وعندما اقترب الجندي مني ضربته علــى أنفه بالصنوج! (ينفجر ضاحكاً) في بعض الأحيان تنجح مقالبي!.. اسمع، هل تريد أن نضحك عليهم؟ (ينزع ملابس الجلاد) ستموت الآن ضحكاً مــن هــذا المقلب.. أعطني قبَّعتك... أعطني ولا تَخَفْ (يلبس قبَّعة المهرج تيل)

ها! والآن أنا أنت! (يضحك) وأنت البس ملابسي.
هيَّا نذهب. سيظنون أنهم يعدمونك أنت... موقف
يميت من الضحك!..

(ضجة. يظهر السمَّاك في عمق خشبة المسرح وبيده
مسدس)

السمَّاك: الغوزيون في المدينة! لقد حالفك الحظُّ مرَّة أخرى
يا تيل!.. افرح! (يطلق النار على الجلاد في ظهره)
انتهينا! نفَّذت حكم الإعدام!

الجلاد : (لتيل) أرأيت؟ (ها قد خلص الغبيُّ بيننا!(يسقط على
الأرض) أحبُّك يا تيل، لأن صحبتك مليئة بالمرح دائماً!
(يموت)

السمَّاك: (يقترب من الجلَّاد) لقد نفَّذت رغبةَ الربِّ، مات
تيل أولين شبيغل أخيراً!

تيل : تيل أولين شبيغل حيٌّ!

السمَّاك: (مصعوقاً) هذا غير ممكن!

تيل : في فلاندريا كلُّ شيء ممكن!

(يطلق السمَّاك النَّار على تيل، الذي لا يتأثَّر ويتوجَّه
نحو الباب)

أرأيت؟ كلُّ شيء ممكن.

(يطلق السمَّاك عليه النار مرة ثانية، لكنَّ تيل لا يتأثَّر)

كم أنت سيِّئ الحظِّ أيها السمَّاك... إنك فاشل حتَّى في القتل. (يخرج)

السمَّاك : هل ضحكتَ عليَّ مرَّةً آخرى يا ربّ؟ لقد حشوا مسدسي برصاص خُلَّبيّ!.. (يُطلق النار على نفسه) عفَوك يا رب... حقيقي... (يقع ميتاً).

* * *

الخاتمة

(تيل ولامي يجلسان على خشبة المسرح الفارغة ويتأمَّلان صالة المتفرجين).

لامي: لا تصمت يا تيل... قل أيَّ شيء!

تيل : ماذا؟

لامي: أي شيء تريد. أي كلمات تخطر على بالك... عندما تصمت يصيبني الخوف... تجول في رأسي مختلف التصورات المرعبة.

تيل : إنني حيٌّ يا لامي، حيٌّ! كم مرَّةٍ قلت لك هذا.

لامي: هذا مفهوم، ورغم ذلك. فإنك كنتَ مستلقياً على الأرض. عندما اقتحمنا السجن كنت أنت مستلقياً...

تيل : وماذا في ذلك؟

لامي: لماذا كنت مستلقياً؟

تيل : كانوا يطلقون الرصاص من كل الجهات... فلماذا أبقى واقفاً؟

لامي: عندما انحنيت عليك كنت مقطوع النفس!

تيل : مزحت معك.

لامي: مزاحك يا تيل يخلو من الذوق!.. في الماضي عندما كنتَ تركب على الحمار بالمقلوب في السوق وتغنِّي «**أَنَذا لامي الهُمامْ، كلَّ هَمِّي في الطعامْ، عُنُقي أضحتْ كجزعٍ، وبها ضاق اللِّجامْ**»... كان مزاحك مضحكاً، ينشر السعادة بين الحضور. أما هنا فكنت مستلقياً، مغطَّىً بالعلم والأوراني يخطب وأنت مسجَّى دون حراك...

تيل : أخذني الحال لأنه تفوَّه بكلمات عذبة: «تيل هو روح فلاندريا... تيل أولين شبيغل غوزيٌّ عظيم!»

لامي: طبعاً، هذا شيء يسرُّ أيَّ إنسان إن سمع مثل هذه الكلمات عن نفسه... ولكنْ بعد ذلك؟

تيل : ماذا بعد ذلك؟

لامي: لماذا غطُّوك بالمعطف بعد ذلك؟

تيل : كان الجوُّ بارداً...

لامي: ولماذا وافقت على دفنك؟!

تيل : توسَّل الرفاق إليَّ حتَّى لا أُفوِّت عليهم مأدبة ما بعد الدفن لأن الأوراني أعدَّ ستة براميل من النبيذ... فهل تريد لهذا كله أن يذهب هدراً؟

لامي: طبعاً لا... الأكل والشرب شيء جديد... (غاضباً) ومع ذلك، عبثاً فعلت كلَّ هذا! والآن تستطيع عضَّ أصابعك نَدَماً!.. كثير من الناس يعتقدون أنك متَّ فعلاً. ويقال إنهم قرَّروا إقامة نصبٍ تذكاريٍّ لك... لكنهم لا يعرفون في أي مكان. بعضهم يقول في أمستردام، وآخرون يقولون في بريل، وغيرهم يقولون هنا على الطريق... أمَّا من شاهدك في آخر لحظة فيُصِرُّون على إقامة النصب في المكان الذي كنتَ مستلقياً فيه... وأنت نفسك، أيَّ مكان تفضِّل؟

تيل : أنا أفضِّل أمستردام.

لامي: وأنا أيضاً... العاصمة أفضل طبعاً... (بغضب) كفى مزاحاً يا تيل. هيَّا أعلِنْ للناس عن نفسك!.. لنذهب إلى ساحة المدينة وهناك تصيح قائلاً: «هذا أنا»، يجب أن يصدِّقوا بأنك ما زلت حيَّاً، فهم ليسوا عمياناً.

تيل : أنت على حقٍّ طبعاً... لكنْ من جهة أخرى لماذا نزعج الناس. لقد سلَّمَ الجميع بفكرة عدم وجودي واعتادوا عليها... الوقت الآن غير مناسب يا لامي!

لامي: يا لك من عنيد! إذن، كما تريد... ولكنْ أرجوك أن لا تصمت عندما تكون معي، تحدَّثْ عن أيِّ شيء.

تيل : كفانا كلاماً، اقترب موعد اجتماع الناس ولم نفعل شيئاً بعد... هيَّا ننجز عملنا!.. (يرفعان صليباً خشبياً كبيراً في منتصف الخشبة).

لامي: هكذا... لا بأس! آخ، لو كان هناك لوحة مكتوب عليها: «هنا ترقد روح فلاندريا..» لا، لا بل «هنا يرقد روح رُفاتِ...» اللعنة، لست أدري كيف أقول.

تيل : لا داعي للوحة... (يعلِّق قلنسوته على الصليب) هذا أبسط وأيسر على الفهم.

(يظهر الأصدقاء والرفاق وأقرباء تيل واحداً بعد الآخر، ثم يتحلَّقون حول الصليب ويُطرِقون برؤوسهم حزناً)

لامي: ألا ترى أنه حان الوقت لظهورك؟! لقد حضر الجميع... هذا أنسب الأوقات!

تيل : لم يحن الوقت بعد يا لامي. سيأتي وقتي... عندما يسود السلام والطمأنينة، وعندما يكون كل شيء على ما يرام يا لامي، لا تحتاجون إليّ. ما إن تحدث في البلد مصيبة، أو يخيِّم الخطر، حتى أظهر حالاً! عندها سأظهر حتماً!.. (يغنِّي بصوتٍ خافت):

ها خَدَمي، حُرَّاسي، حَشَمي   أوقحُ ما أعرف لكنَّهم

رأسُ المالِ، ذُرى النِّعَمِ

لا بأس، سيسمع الناس فهم ليسوا طرشاناً، أليس كذلك؟

(يتابع الغناء بصوتٍ مرتفع)

آهٍ تيلي، تيلي، تيل:

لِتَكُنْ أفراحُ العمرِ لنا

آهٍ تيلي، تيلي، تيل!

ولنهزأ بمشانقِنا.

- ستار النِّهاية –

- ١٩١ -

الفهرس

الصفحة

توفيق المؤذن

- مخرج مسرحي سوري مقيم في موسكو.
- أخرج بعض المسرحيات أواخر سبعينيات القرن الماضي في دمشق.
- ترجم عدداً من الأعمال الأدبية (المسرحية) في وزارة الثقافة السورية، وكتاباً صدر عن مكتبة مدبولي – القاهرة حول «إعداد المخرج المسرحي».

الطبعة الثانية / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة